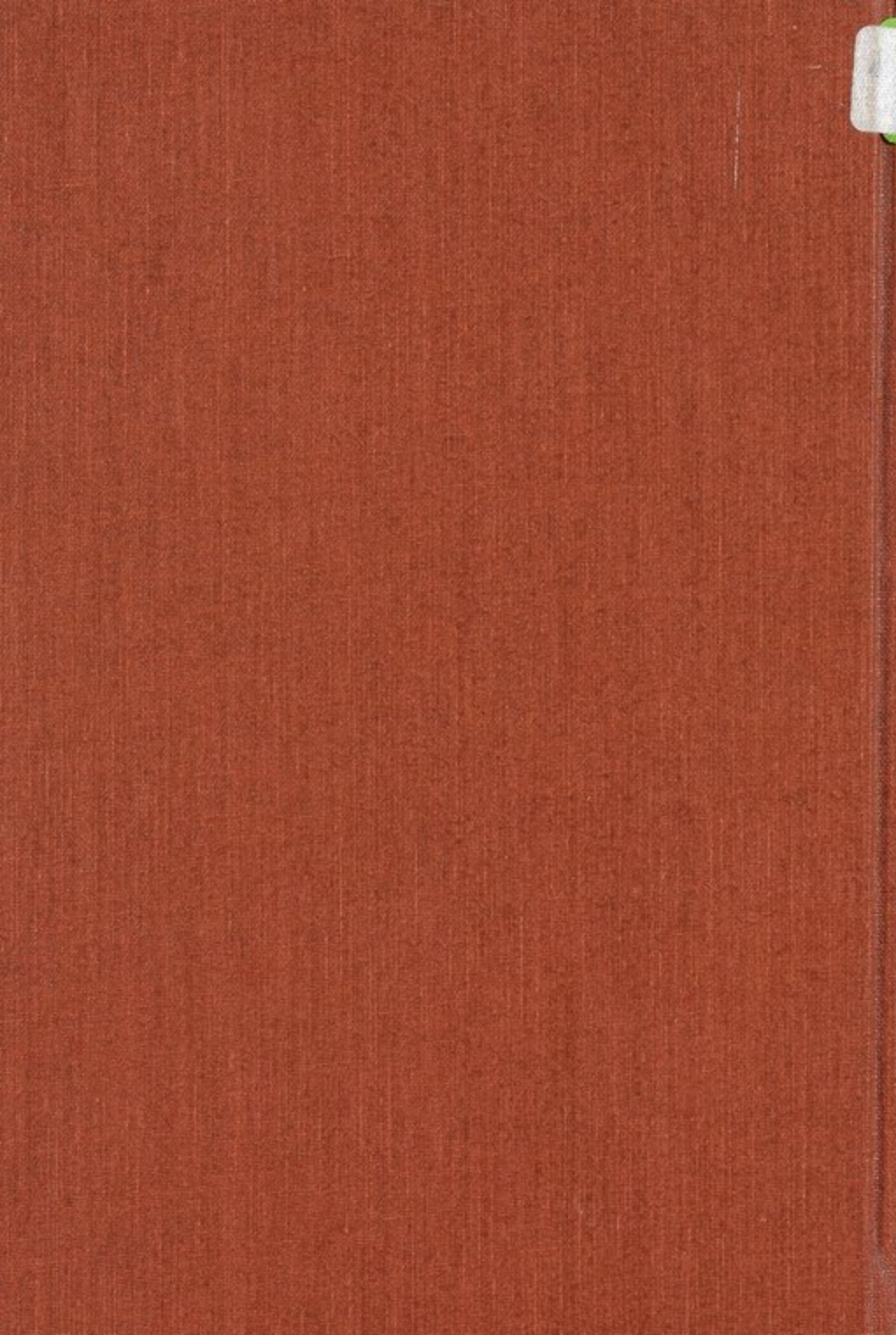




Princeton University Library



32101 074474923

Princeton University Library ..

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or re-
new by this date.

هجائي

معجم الأندلس في

الأدب



١٥٧٧

Ashgar



سَعِيدُ الْإِسْمِ

•

أَسَدُ الْإِسْمِ

(RECAL)

PJ7814.

. 5459M32

1943

I

خرجت قرية مرياع من الليل البارد ، القاتم ، فباتت بأشجارها العارية وبيوتها المبللة ، كأنها كانت تستجم طيلة الليل بالمطار ، وغدت الآن تنتظر الشمس لتكشف الماء عن عريها . فهي مقففة ، صامتة ، تحن إلى لحظة من أنوار صنين المبكرة ، وتشكر الله على الحطب الوفور لابنائها ، يرقونه بمسرة في مواقدهم .

أما هي فسيطول اشتياقها وحنينها إلى الشمس المنعشة ، وقت تبعثر هذه الغيوم المتلبدة الآن فوق صنين كأنها أسوار نقالة من القثوم ، تتبع الشمس في ارتفاعها ، وتصد أمواج الأنوار لتطيل ارتعاش مرياع في بردها .

ولكن مرياع لا تخاف الشتاء والبرد وان تراءت كأنها تغتش عن الحرارة ، فهي قد تعودت الشتاء في الجبال لا تهود ولا تهادن . وإذا هدنت السماء عن تهطلها ، كما كانت منذ دقائق ، فلتنطلق الرياح من آفاقها وقصادم في كروم القرية وبين بيوتها ، وهكذا تتمرن مرياع على الهواء الطلق المصقع هاوياً من الجبال البيضاء وتستغني عن الحرارة في الشتاء .

تنهض مرياع على رابية متعالية ، فتقوم بيوت على قمتها ، وتوزع بيوت في جوانبها وتنتثر أخرى على حدود الكروم والأحراش . فبيوتها تشرف على كل جوانبها كأنها حراس على كل ناحية من نواحيها الجميلة .

الحركة لم تقتزع بعد في القرية . والناس نهضوا من نومهم منذ ساعتين أو أكثر ، وكل عيلة « تعمل صبحية » حول جمرات التوت العامرة . والناس يتكاسلون في صباح كهذا لا ينتظروهم فيه أي عمل ضروري . والتكاسل عند الجبلين

الشيطين ، الذين يسخرون كل عناصر الفصول لكدهم واجتهادهم ، هو نوع من التفككة النادرة ، لا يارسونها الا ساعات كل اسبوع ، فقط في الشتاء .

حركة الدروب في القرية ما تزال هادئة ، اما اذا تشوقت الان من احدى الشرف او السطوح ، تلمح افراداً طلعوا في برهة صحو يحدلون سطوحهم المتربة بالحوارة ، فهم يخافون الوكف المزعج في « عيانة » طويلة . وان اصغيت لا تسمع الا زقزقة الاقواس في ثقب المحادل ، كانها تحث المتكاسلين ليسرعوا الى سطوحهم ، والحدالة لا تكثر على السطوح المتربة .



هذا يوم احد ، وقبل ان تنتهي الصبحية ، ويهب الجميع الى لبس ثيابهم ليذهبوا الى الكنيسة ، عاد الجو الى التلبد ، وهطلت الامطار بصورة لا تبشر بصحو قريب .

هو يوم من تلك الايام الباردة ، الممطرة ، تتجمع فيها العيلة الريفية في غرفة الشتاء حول النار كالدجاجة مع فراخها . هو من تلك الايام التي تسجن الريفيين في بيوتهم ، قابعين ، مستكنين ، يتعمون ، حتى بعد الصبح ، بهذه الساعات الفارغة تفرض عليهم الراحة فرضاً يتلذذون بنحو العيلة المرح ، وقد امتلأت الدنان والاهراء بالملونة الكافية .

والكن البيوت ، في صباح كهذا تعبق بكل العواطف العائلية الصغيرة ، فيتجول السجن الى اجتماع يشتاقه الريفيون منذ الصيف .

في وقت كهذا تحكى البنت حكاياتها الخاصة ، ويروي الابن اخبار القرية المتنوعة . يعطي الاب بلاغاً عن موسم الفلاحة . محبذاً نشاط جار يسبق الجميع باشغاله ، وممتقداً آخرين لكسلهم وتوانيمهم . اما الام فتعمر هذه العيلة المحبوبة بنظرات الحب والحنان وتشعر ان الغبطة تفور من اعماق قلبها .

وبينما القرية هادئة كل هذا الهدوء غارقة في تأملات الشباب ، ثمة باحلام الفتيان واماني العذارى ، تتبعثر في اجوائها هوم الشيوخ ونقيق العجائز ، دق جرس الكنيسة . هذا يوم احد ، يجب فيه الذهاب الى المعبد . وهذه الحلقات العائلية ، المعقودة

في زوايا البيوت تتحول في الكنيسة او في ساحاتها الكبيرة، الى جلسة قروية عامه،
تصبح فيها القرية شبه عائلة واحدة ، في فترة قصيرة .

في يوم ممطر كهذا لا يحضر الجميع الى الكنيسة ، ولا تعقد وقفة الساحة ،
امام باب الرجال . ولا يفسح للفتيات ان تراقبن حركات الفتيان وجلساتهم وملابسهم .
ولا يتاح للشبان بمسارقة نظرات خاطفة في ناحية من النواحي بينما هم يدخلون او
يخرجون من المعبد .

لم يأت اليوم الى الكنيسة الا الكهول والنساء وبعض الشبان ، وقد انصرفوا
في اخر القداس او فور انحلاله ، ليعودوا بسرعة الى النار اللاهبة ، الى الترويقه
العامة قرب الموقد ، الى شي البلوط والكستناء ، الى الاحاديث العائلية الممتعة .

اما بونا الياس ، كاهن الرعية ، فقد س بسرعة لان البعد كان قارصاً . وقبل
ان ينتهي من نزع ثياب القداس ، ومن صلاة دقائق معدودة امام المذبح ، كانت
الكنيسة فارغة من المصلين . فقد اغتنموا فرصة الصحو واسرعوا الى بيوتهم خوف
ان يفاجئهم المطر في الطريق ، اذا تأخروا كالعادة ليسلموا بعضهم على بعض ويقبلوا يد
القيس الطاهرة .

وكان سرور بونا الياس بهذه الصحو اكبر من كل سرور . فقد فكر ، وهو
يسكر باب الكنيسة ، بتلك البقوات المسكينة ، المزروبة في مروحها ، المربوطة
الى معالفها منذ ثلاثة ايام متوالية وسار مسرعاً ، هو ايضاً ، ولكن لقصد غير قصد .
اهل القرية كلهم .

II

— خذ الغذاء ، يا جريس ، والحقني الى « المثل » قد توقف المطر وليس في الجو ما يخوف ، قال بونا الياس ، مخاطباً ابن اخيه ، ثم اف شحيمته العتيقة بجلدتها الطويلة وتقدم الى طاقة قرب النول وضع فيها كتاب صلواته . وبعد ان مشط لحيته باصابعه ، وتأمل هنيئة كأنه يستعرض في فكره ما يمكن ان يحتاجه في الهربة ، توجه من قبر الشتاء الى المراح . هناك فك الابقار كلها وساقها امامه ، ولما وصلت الى مفرق الطرق ، قرب البيت ، توقفت لان بونا الياس تأخر هنيئة عنها ، ولكنه لحقها بسرعة وهول عليها ، بلطف ، بعصاته وهو يقول لها « روعي على المثل »

في الكنيسة تم بونا الياس كل واجباته نحر الرعية ، وفي البيت اعطى تعليماته لابن اخيه جريس ، وانصرف الى العمل الذي يعده هو الجزء الاكبر من صلواته اندائمة لم يتناول ترويخته كسائر الناس ، بل اخذ رغيماً من المعجن ، وضع فيه قطعة من الجبن ، وحببات من الزيتون الاسود المسبج ، ثم سرح مواشيه ومضى ، لا يأبه لاعتراضات امرأة اخيه .

وقد عجل وغادر البيت مع ابقاره دون ان يراه احد . فهو يخشى السنة الناس ويتحاشى انتقاداتهم الجاهلة .

ومن عساه ان يراه في هذا اليوم اخصواً وبيته منفرد الى جانب القرية الشمالي يتأخم الاحراش والكروم . واذنى بيت اليه من بيوت القرية يبعد مئتي متر على الاقل .

كانت الابقار تعرف دربها ، عندما تسرح وتترك لغريزتها ، فهي باشارة بسيطة

من اهل البيت تتجه نحو « المطل » ، الكرم الواسع ، الكبير ، الذي يشتغل
بنقبه بونا الياس واخوته منذ ثلاثين سنة . وقد اطلق عليه هذا الاسم لانه يشرف
على البحر ، ويظهر دانياً من اواجهه ، مع انه يعلو خمس مئات من الامتار ويستمتع
بمناخ الجبال البارد .

ويقع كرم « المطل » في اطراف مرياع الغربية ، تنحدر من جانبيه الغربي
والجنوبي احراش الصنوبر ، وتحاذيه من الشرق والشمال كروم القرية البائخة
الاخضرار بالنسبة الى وريف اغراسه وانتعاش ارضه .

والواقف على اسواره العالية ، مواجهاً البحر ، يتبع نظره سلسلة من الوهاد
الراكضة ، تصل سريعاً الى بساتين البرتقال في سهول السواحل الضيقة . وان تطلع
الى الشرق بانز مرياع تبصر بيوتها بين بساتين التوت المحدقة بكل بيت ، وظهرت
قمم الجبال كأنها تشرئب الى الشواطيء . اما الشمال والجنوب فيختفي الاول
وراء ادواح الزيتون العتيقة ولا تظهر في الثاني الا قري بعيدة تبين منها اشياء
مبهمة .

مشت الابقار على درب المطل تلثم الاعشاب المبللة ، ينسة ويسرة ، فهي
عطشى الى الخضرة ، تأكل التبن (والجزء) منذ ايام ثلاثة . وسار بونا الياس على
مهل وراءها ، لا يزعجها ولا يدلفا على طريقها ، اذ هي تعرف هدفها ، تذهب اليه
يوماً منذ سنين : هو الحرش المجاور للمطل حيث ترعى طيلة النهار حرة طليقة . وعند
المساء لاول نداء من الراعي ، تأخذ سربها نحو البيت ، وتتابع سيرها الى مرحبا
بدون اية عناية .



منذ ثلاثة ايام يستمر المطر ، لا ينقطع الا فترات قصيرة ، سواء في الليل ام
في النهار .

واكثر القرويين ، وخصوصاً الشبان منهم ، يفرحون بهذه « العيانات »
الطويلة ، يحيون لياليتها بالسهرات المتأخرة والالعب الصاخبة ، حول المواعد العامة
بحطب التوت وجمراته المشهورة بوهجها القوي الصامت ، يتنفس الجبلي هواءه الحار

بلدة كان فيه نسمة خفية .

كان بونا الياس يخشى هذه الامطار الطويلة المملة ، فهي تعطله مع اعضاء العيلة عن الشغل ، فيتعود اشقاؤه وابناؤهم لعب الورق والسهرات والكسل ، وتذهب المواشي بالتبان الكبير وما فيه من قناطير الجزرة والتبن وقشر التوت والحشيش اليابس .

فالتبان عزيز عليه كمونة البيت تماماً ، ويجب ان يوفره بتسريح المواشي الى المرعى كلما سمحت ايام الكوانين ، ولو ساعة في النهار .

والمواشي قلتهم كثيراً في الشتاء ، ساعة من المرعى لعشرة رؤوس من البقر تعني توفير عشرة ارطال من التبن والجزرة ، وهذا يجمع كثيراً على مدى الشتاء ولياليه الطوال . ولولا نشاط بونا الياس وسيطرته المطلقة على السواعد العاملة في البيت لكان التبان يفرغ قبل انتهاء الكوانين ، ولألمسى امرأ مستحيلاً عليه ان يشقي عشرة روس من البقر الحلوبة العاملة

يسيطر بونا الياس على بيت تتفرع منه عيال ثلاث ، تعد خمسة عشر نفساً ، تعيش عيشة واحدة ، وتطيع اوامر شخص واحد .

هو لا يسيطر بسطوة ظاهرة وشخصية بارزة ، فليس له سطوة ظاهرة الا على العجول القوية ، عندما يكبسها على الفلاحة ، فرغم تخافة جسمه وقلة قوته ، تخاف العجول صوته العالي ، ومساسه الطويل ، وقبضة يده المتمرنة على مسكة الصمد الثقيل . وقوة شخصيته تظهر في ما ينصب من اغراس الزيتون والكرم والتين ، وفي ما يطعم من الاشجار عامة . فمطاعيمه لا يحرم واحد منها ، بل تفرخ كلها وتنمو كأن الحيوية تسرب من انامله الخفيفة وقلبه العطوف .

كيف يسيطر اذن على اخوة ثلاثة ، كلهم متزوج وله عيلة ، وعلى ابناء اخوة عديدين غدوا كلهم شباناً وصبايا !

هو لا يعتمد النفوذ والسيطرة . هو يجهل انه يسيطر ، ولا يعلم لما يطيعه الجميع . هو يسيطر بالفضائل تتدفق من نفسه ويديه تدفق المياه من قلب الارض . هو يحكم بالحجة ومحبة لها مظاهر غريبة ومعان خاصة . محبته لا تظهر

بازيائها المعروفة عند الناس ، فهي لا تعرف العواطف والالطف والقبل . لا تفهم خفة الاولاد فتساهل معها ؛ وعواطف الشباب فتراعي جموحها ، وحاجات الرجال والنساء فتغض الطرف عنها .

محبة هي الشغل الدائم ، المتواصل . والشغل في نظره لا يكون الا في الارض . الاطفال عنده اغراس تظهر اوراقها وتنطلق في غوها ، والشبان شجيرات مطعمة لسنة او سنتين ، تبدأ بارسال اثمارها مع اغصانها النضرة . وكل ما في الحياة من حداثة وفتوة ، وشباب ورجولة ، يجب ان يسفح ، حسب شعوره ، على اصل الشجرة الام ، وهي ترد اتعابنا خيرات مضاعفة .

هو يحكم البيت باتلاف كل حياته مجاناً على صدر هذه الارض . ولا يستثني الا ساعات قليلة يواجه فيها آله الناس في الكنيسة ، اما الله ، هو ، فيراه في كل زمان ومكان . هو يحكم بالمثالية الكاملة التي لا تعرف غاية الا صلة الارض .

والارض ملك اشقائه ، ليس له منها الا ما يغمر قلبه من غبطة العمل والتضحية فالتضحية هي هدفه ؛ وهي منبع قوته ونفوذه على الجميع .

هو يسوق الجميع الى العمل بهذه القوة الغزلاء . فيطوعون له طوع انامله عندما يطعم ويقلم .

وقد فهم الجميع في البيت ان القسيس يعمل من اجلهم ، ولا يطلب الا قوته اليومي ، مؤلفاً غالباً من الخبز والزيتون والبصل ، وقليل من التين المطبوخ او الدبس . نادراً ما يرسل اليه صحن من المجدرة او الهرغل المطبوخ بالقورمه وهم يقولون غالباً في نفوسهم : فلنستغف منه طالما هو يشتغل ، فلنقطع اوامرنا لمصلحتنا ، ولنقتبس من اختبارات الزراعية ، وعندما نسأم منه نرسله الى الدير .



كان من المؤلف ، طبقاً للانظمة الرهبانية ، ان يكون بونا الياس في دير . فقد نذر حياته بمسراتها واتعابها لخير الدير . وقد عاش فعلاً خمس سنوات في الدير ، حتى وصل الى الرتبة الكهنوتية . وكان مشهوراً اثناء اقامته في الدير بتقواه وغيرته على املاك الرهبنة وكل مقتنياتها . ولكنه راي انه يعمل ويكبد بينما غيره ينهب

ويخرب . وهو يوفر ويحافظ بينهما غيره يبذر ويُعطي سرّاً وجزافاً . رأى اتعابه تذهب
هدراً الى حيث لا يجوز ان تذهب ، واحس ان حبه للارض لا يرتوى في هذا المحيط
الفضوى ، حيث يشتغل الناس كأنهم مستخرون ، وحيث تتلف الاتعاب والاراضى
لفقدان العناية الكافية والعمل المخلص . لذلك فكر بونا الياس بالعودة الى قريته
منذ عشرين سنة ، يخدم اهلها مجاناً في مراسيمهم الدينية ، ويعتكف على الشغل
في اراضي اجداده ، يهندسها كما يريد ، ويقسط اغراسها كما تعلمه اختبارات
الطويلة ، ويعطي اهل القرية امشولة الكد والنشاط . فقدم الاعذار العديدة لروثائه
والح اقرباؤه واهل قريته لاستقدامه اليهم ، حتى اذن له اخيراً بمغادرة الدير ، دون
ان يعد خارجاً على النظام الرهباني المألوف .

III

وراح جريس يعد الزوادة مع اخته مريم متأففاً ، متذمراً ، بعد ذهاب عمه
القسيس ، وطفق يحاطب نفسه على مسمع من شقيقته ، وربما من والده :
« ما هذه الحياة المتعبة مع هذه الرجل ! الا يعرف احداً ولا عيداً ، ولا بطالة !
اي مجنون يذهب الى الكروم في هذا الطقس الممطر ! وهل ترعى البقر الحشيش
مغموراً بالمياه ! الناس لا يخرجون بر بيوتهم ونحن ، يجب ان نقضي النهار كله في
« المطلق » ، وما عسانا ان نفعل هناك !

« الارض وحل لا تدعس ، والحجارة رطبة لاتمس ، كي نقول انه يريد ان
يعمر « الحفة » المهبطة ! وكيفما داروا لا يطلع في دربهم الا جريس ! كأن جريس
مخلوق للشغل والتعب فقط ! كأن جريس ليس شاباً كبقية الشبان . . »
وكان بوجريس جالساً قرب الموقدة ، يدخن زجيلته ويجدل « شرعاً » للنير ،
تبعثر امامه ادوات زراعية من كل نوع ، ليستعرضها ويفحص حالتها . كان بو
جريس في القبو الشتوي الكبير المفروش بالحصر البلدية تغطيها « البلس » الحمضية
السوداء . وقد فرش ديوان واط الى الجهة الغربية من القبو على دائر الحيطان

الثلاثة ، وصفت المساند ملقاة على الحيطان ايضاً ، وقامت الموقدة الكبيرة قرب
العمود ، منتصف القبو ، اتوزع الحرارة على المحل كله .

في هذا القبو كانت تقضي العيلة ايام الشتاء ، ولا يصعد احد الى الطابق العلوي
الى الحارة المقطوعة غرفتين ، الا في الليل عند النوم . وغالباً كان بوجريس
والقيس يغفوان في القبو ، على الطراريح المفروشة قرب الموقدة ، حتى الصباح .
بينما كان بوجريس يقوم بعمله مستدفئاً ، مصغياً الى تافف جريس في « المد » ،
وهو غرفة صغيرة مقطوعة عن القبو ، كان حنا شقيق جريس في المراح المجاور
للقبو يقشر قطعة من السنديان المشوي على النار ، معدة لتكون صنداً احتياطياً .
سمع بوجريس كل ما قاله ولده ، فامع بعض من كلام لم يسمعه بعهد من هذا الابن
المطيع ، الرزين ، وفاجأه موجئاً ، عاتباً .

— « عافاك ، يا جريس ، عافاك ! يحق لك ان تحكي هكذا !

» فعوضاً عن ان تكون قدوة صالحة للجميع ، انت تغضب وتتذمر ! عوضاً ان
تشكر هذا الراهب المسكين الذي ترك ديره وجاء يكرس حياته لاجلك انت
واخيك ، انت « تربحه جميلة » ، وتعمل كأنه يسخر لمصلحته . عيب عليك ،
يا جريس ! لا تتحل احدأ يسمعك ! نحن كلنا يا ابني خدّم لكم ، ولولآم لكنا
نقضي كل ايام الشتاء مرتاحين قرب النار . نحن نشغل لمستقبلكم ! »
ثم تابع كلامه بصوت فيه اللين والعطف والتعزية ، وقال :

— تعال الى هنا يا جريس ! ... نحن ، يا ابني ، لا نقدر ان نعمل مثل غيرنا .
اتريد ان نسلك سلوك الجهال الطائشين ! الفلاح يا ابني لا يقيمه الا ساعده واجتهاده .
والا تأخوت حاله وباع ارزاقه . هذه الجبال لا يعيش فيها الا النشيطون الدربون .
وقد اعطانا الله هذا القيس بركة ونعمة لبيتنا . لولآه لكنت ارزاقنا خراباً .
ولكنت عظام جدك الخوري الياس تغضب علينا .

ثم تمس بوجريس وقال :

— « لقد طلق الدير والراحة ، والاكرام ورغد العيش ، وعاد الينا ليساعدنا ، ليهيئنا
حياته كلها ، ليشعل وجوده شمعاً تضي . طربقنا ! هو اب وام واخ ومرشد ، كرس

نفسه وجسده قرباناً لنا مدى الحياة . فاتكّل على الله يا ولدي ، وإياك إن تخاف
لعمرك أمراً !

« ثم تعال ! ... قرب الى هنا ! ... »

فتقدم جريس وجلس قرب أبيه .

« لا يمكنك يا جريس ، ان تقدر ما هي عواطف عمك نحوك . فهو عادل بين
الناس بقدر ما هو ظالم لنفسه . اتعلم ما قال لي امس ! ... قال لي ان « المظل »
يجب ان يكتب باسم جريس ، لانك انت عاوتت بنقبه طوال خمس سنين قبل ان
يبلغ اخوك حنا ، ويشترك بالشغل معنا . هو يعتقد انك الحق بنصف المظل على
اقل تعديل ، وانا من رأيه . »

— ما لك ولهذه الافكار ، يا ابي ، انا لا افوق نفسي عن اخي وابناء اعمامي .
وارزاقنا كثيرة والحمد لله ، تكفي الجميع . لقد تزوجتم انت واعمامي وريتم عيالا
ولم تقسموا شيئاً . اتقسمون لنا ونحن ما تزال في كنفكم ! ... »

« انا لم اتذمر يوماً من الشغل ، ولكن « كل شيء » زاد بالمعنى نقص » ، الا
يجب ان نرتاح نحن مثل غيرنا ! ماذا يقول الناس لو رأوا عمي في المظل في يوم كهذا !
— « هذا طبعه من الاول . لا يعرف الا الصلاة والشغل ، فهل تريد ان تغير
عقله في آخر ايامه . دعه يفعل ما يريد وهو يدبر مسائله مع الرعية . اما في ما
يختص بك فلن يكون الا على خاطرك ، والذي بفكرك سئمته لك . فقط لا ترعل لي
هذا القسيس المسكين الذي ربانا جميعاً ... لا شك انه ينتظرك ... اذهب الآن .
وكما قلت لك ، كن كما عهدتك طائعاً ومحترماً »



حمل جريس زوادة النهار ، بعد ان لبس عباءته الحمراء الجبلية وتوجه نحو المظل .
كانت الساعة قاربت الحادية عشرة ، والسما استأنفت المطر . لم يكن جريس شاعراً
بهطل الامطار ، وتحول الطريق الى سواق صغيرة ، بل كان يشي الهويناً متأملاً بما قاله
ابوه . وقد اثر به شعور القسيس نحوه الى آخر حد . هو لم يكن يجد في عمه ، الى ذلك
اليوم ، الا رجلاً ، قاسياً متدماً ، يتهم الجميع بالكسل وقلة الشغل ، ولا يعترف

بتعب احد من العاملين معه ، حتى ولا بتعب جريس . اما اليوم فقد ظهر له في شخص
الراهب رجل جديد يقدر اتعاب كل انسان حتى قدرها . . .

ثم ماذا يعني ابوه بقوله انه سيتم كل ما يفكره ! اهو يعني ابنة عمه بو طنوس ،
تلك التي احبها جريس واحبته منذ الصغر ، ولم تكن الظروف من بلوغ امنيسة
هذا الحب المتبادل ! لا شك ان اباه يعني ذلك ، وهذا ما افهم قلب جريس غبطة
عميقة ، وجعله يشي على مهل غير آبه للمطر ، مثلاً باحلام عذاب تنهت فلات قلبه وخياله
لم يخرج جريس من حلمه الا عند رأس المظل . هناك رأى الابقصار راعية في
حرش الصنوبر ، ولكنه لم يسمع لعمه حساً . دخل الكرم ونزل ادراج حفافيه
متوجهاً نحو السقيفة حيث يمكن ان يكون القسيس محتمياً من الشتاء ، وقد ظن
جريس انه سيجد مهجراً لتأخيره عندما يرى عمه معطلاً عن العمل ، ينتظر الصحو
ليأتي باية حركة . ولكن ظنه كان مخطئاً . كان القسيس قد جبل كمية من الحوارة
جعل منها طيناً ، وبدأ يصنع مقعداً كبيراً يمكنه عند الحاجة ان يضع عليه حصيرة
وطراحة ويحوله الى سرير .

« الآن جئت ، يا جريس ، بادره الراهب لدى وصوله ، كدت انتهي من
الشغل الآن ! ارأيت ماذا صنعت لك في هذا الوقت ! غداً تأتي بحصيرة صغيرة ،
وبطراحتين وغطاء عتيق ! حتى اذا اضطررنا الى النوم هنا ، لا ننام على الارض .
خذ هذه الاوتاد ودقها في حيطان السقيفة لتعلق بها كل ادوات الشغل . الا ترى انها
تصدأ على الارض .

« ما لنا وللبقاء في البيت يا جريس ! الحركة بركة دائماً . ارأيت البقرات كيف
ترعى بقابلية تحت المطر . »

— وهل نحن مقصرون ، يا عم ! . . . الا يجب ان ترتاح انت قليلاً ولو على اعين
اهل القرية . . . فالناس كلهم يقولون انك « كاش » « وكلبان » على الشغل ،
وانك تريد ان تأكل الدنيا ، والدنيا اكلت كثيرين من قبلك ، ولم يأكلها احد ،
الناس يحكون كثيراً ، خصوصاً وانت كاهن ، من رجال الله ، لا من رجال الدنيا .
— لا تبال بما يقوله الناس يا ولدي ! الناس لا يفهمون الا قشور الاعمال الصالحة ،

اما جواهرها فانهم بعيدون عنه ، ولا يدركون الا رموزاً عن الله ، اما حقيقة الله
غضائفة عندهم . هم يرون الصلاة في نصف ساعة يقفونها في الكنيسة كل اسبوع ،
اما الصلاة الحقيقية فهي تجيد دائم للآب في الاعمال الصالحة ، والارض هي اظهور
مكان تلامسه يد الانسان وتبقى نقية ، بعيدة عن كل دنس ، فليقل الناس ما
يشاؤون ، انا اشعر انني اقرب البشر الى الله في هذه البرية ، وان صلوائي على المذبح
لا تعوق بتقاوتها وطهرها شغل يدي في هذه الارض .

« عندما يريد اهل القرية ان يطعموا اغراس كرومهم لا يقولون انني اشتغل
اكثر من اللازم ، بل يغدون قبل الفجر طالبين ان ارافقهم الى الكروم ، حتى
ايام الاحاد والاعياد .

« ولكن مالي نسيت المسألة الهامة ! تعال وانظر . الخفني لترى منفعة مجيئنا
اليوم الى هنا ! ... هات الرفش معك . لقد صحت ! ويمكننا ان نشتغل الآن . »
وترك القسيس السقيفة ، يتبعه جريس حاملاً رفشاً لف عليها حبل طويل .
— تعال وانظر كيف خندقت هذه الحفة التي اشتغلنا بعمارها اسبوعاً كاملاً .
قال بونا الياس ، عندما توقف قرب حفة عالية ، حديشة البنيان ، حفر السيل في هذه
الايام الثلاثة الممطرة خندقاً صغيراً في احدى جنباتها فامست معرضة للانهارار في
تلك الناحية .

واكمل : « اذا انهارت الحفة هنا . عند هذا الخندق ، ربما تصدعت كلها . ان
للعناية الالهية جاءت بنا الى هنا . ليلة مطر اخرى ، وهي على هذه الحالة ، تذهب
بتعب ايام عديدة . هات الرفش وشد انت بالحبل لنظم هذه الحفرة . »
واخذ القسيس يحرف التراب ويرميهِ في الجورة ، وجريس يشد بالحبل دون اي
تعليق على كلام عمه ، لانه ائتمن بان الحفة كانت بخاطر الانهارار وان المجيء الى
الكروم كان نافعاً جداً .

— ان عين الفلاح يجب ان ترعى الرزق ليل نهار يا جريس ، والادب فيه
الخراب وانت لاتدري . ان شغل خمس دقائق الآن يوفر علينا شغل ايام . تأمل ،
لو سقطت هذه الحفة ، ما كانت تكلفنا من العذاب والتعب .

وبقي جريس صامتاً ، كأنه يلوم نفسه على ما بدا منه من التأفف وقال في سره .
« من ليس له كبير فليشتر كبيراً »

بينما كان بونا الياس يتغدى مع جريس في السقيفة ، توقف المطر المتواتر منذ
أيام وإياي .

وبدا الجو رائعاً ، تتناثر في ارجائه الشاسعة فوق الجبال ، بعض غيمات
خفيفة ، شفاقة ، لا تخيف الفلاح الجبلي ، خصوصاً من كان مثل بونا الياس .
والشمس طلعت بعد ازوائها وراء الغيوم المتلبدة كما يتزوي الحب في قلب
مقيم داهمته الاحزان العارضة . وبان المظل زاهياً باشجاره الفتية يستحم بالنور والحر
ويرتع ضمن اسواره العملاقة كأنه في نعيم !

— ارأيت كيف اصطالح الطقس يا جريس ! قال القسيس مسروراً . ثم مشى
نحو الحرش حيث ترعى المواشي وتبعه جريس .

— انظر بقرائك كيف امتلأت بطونها ، تابع القسيس ، وسترى ان حليب
العزة هذا المساء ، سيكون غير ما كان امس .
« تعال لنجلس قبالها ونششم نحن ايضاً »

ثم صعد على حيط السور من الجهة الغربية ، وصعد وراءه جريس . ومشيا على
السور صاعدين حتى اصبحا مشرفين على الكرم من رأسه الى قدميه ، والمطل كبير
لا تقل مساحته عن خمس فدانات كبيرة ، فلاحه بوجريس وفدانسه — احسن فلاح
واقوى فدان في المنطقة . فالكدنة ، فلاحه بوجريس ، هي كدنة وربيع .

اخرج القسيس منجله من تحت سيده الاسود العريض ووضعها قربه ، بعد ان
جلس على الحائط . ثم القى بجبل الشعر قربها . وجبل الشعر والمنجل لا يفارقان
بونا الياس ابداً . فالمنجل هي سلاحه المشحوذ ، المسلط دائماً على كل نبتة طفيلية
حملتها الطبيعة فنبئت ضمن جدران الكرم !

والجبل هو رفيق المنجل وسلاحه الثاني ، لا يمكن ان قلعه حية رقطاء في
رجله ، فهو يشد الجبل على فخذه ليمنع السم من الجريان .

ثم هو لا يعلم اي متى يجمع حملة من الاغصان اليابسة في الحرش حيث يرعى

البقرات ، فيحزمها حالا ويحملها الى الكرم ، او الى البيت . لذلك لا يترك بونا الياس الحبل والمنجل الا عندما يذهب الى الكنيسة . اذ ذاك تحل الشحيمة محل الاثنين معاً .

— يا ليتك لحقت جدك بوشاهين وقت كان يشتغل يا جريس ! انت عرفتـه شيخاً عاجزاً لا يتحرك من البيت لو كنت عرفتـه شغياً لكنت تعلمت الشغل !
« نحن ! نحن كسالى بالنسبة اليه . اتعلم انه في ايام عزه كان يرجع الى البيت مرة في الاسبوع ، ليغير ثيابه ويعود الى هنا ، الى هذه السقيفة ، حيث كان ينام ، نحو نصف السنة ، على « بلاس » عتيق ويتغطى بعبائته .

« والا كيف قدرنا ان ننقب ارضاً كهذه ! لا يمكنك ان تتصور كيف كانت هذه الارض قبل نقيبها . كل اهل القرية كانوا يسخرون من جدك عند ما باشر بالنقب : « ما عساك ان تعمل من هذه الشحارة ! الشوك والعليق لا يعيشان فيها ! » هكذا كانوا يقولون له .

« اما هو فلم يكن يتكلم كثيراً ، بل يشتغل ويترك الناس يرجعون عن اقوالهم بعد ان يروا نتائج شغله .

« اترى الحائط الاول ، تحت ؟ حيث تبدأ النقبة . . . هذا عمره وحده ، بدون اي مساعد ، لاننا ، نحن ، كنا مشغولين في ناحية ثانية وكانت الايام ايام قر والشغل فوق رؤوسنا . »

— هل كانت هذه الارض حرشاً كالارض المجاورة ! قال جريس :
طبعاً ! كانت مثل جاراتها ، مغطاة باليرز والصنوبر والسميسم والبـلان والصخور الشحارية !

« وهذه الارض قهري ادوات الشغل كما تفعل المبراة بقلم الرصاص ! . . . حتى ان العشب لا ينبت فيها بكثرة ، كما ترى الآن في الحرش المجاور . ولكن جدك استحسن ان يبقى هذا المطل والشمس تضربه من الشروق الى الغروب ، بدون غلة . فقرر ان يقطع الحرش كله وينقبه ، مهما كلف الامر . وقال : ان ما تشح به الارض من طيبة العناصر تعوضه الشمس . ولكن تأكد ان هذه النقبة قد

اكلت من عمر جدك عشرين سنة ؛ ومن شبابنا اعز ايامها .
« انت لم تلحق الا القليل من التعب يا جريس . لقد جئتم ، هذا الجيل الجديد ،
فوجدتم كل شيء حاضراً ، ليس عليكم الا ان تسوسوا ارزاقكم وتستغلوا .
من عمر العاشرة الى الثلاثين بقيت اشتغل مع جدك هنا . ابوك واعمالك
جاؤوا بالآخر .

« فعلى هذه الحفافي قطع من ظهري ، وفي هذا التراب نتف من يدي ، وفي
هذه الاشجار حياة من حياتي ! انت تستصعب اذا وعيتك باكراً لترافقني الى
الكروم ، ولو كنت اكلفك ما كان يكلفني جدك لرأيت الفرق كبيراً جداً . »
- « بدون شك ، نحن لم نفعل شيئاً بالنسبة اليكم . » قال جريس .
- « انا لا اقول لك ذلك لاربحك جميلة يا ولدي . بل لتعلم اشياء عن جدك .
ولو اخبرتكم عن جدي انا ، الخوري الياس ، لرأيت العجائب ! كل جيل يضعف عن
جيل في هذه الجبال ، ولا اعلم السبب ! لا شك ان رغد العيش يعلم الكسل والحوول
» نحن ما تزال اقوياء بالنسبة الى غيرنا ، انظر ارزاق اهل الضيعة كيف تهمل
من سنة الى سنة !

« والشيء العجيب ، يا جريس ، ان جدك نقب هذا الكرم بدون ان يستكري
فاعلاً واحداً . كان هو يشتغل بعمار الحفافي بينما كنا نحن ، انا وابوك وعماك ، نتقدمه
بالنقب : فنقلب التراب ونعد الحجارة . كل هذه الاسوار قد بناها هو ، نحن كنا
نقدم له الحجارة فقط .

« كم مرة كنا نسرب الى البيت مساء والحفة في نصفها ، وعند الصباح كنا
نجدها تقريباً كاملة . كان يشتغل ساعات في ضوء القمر وحده .
« وبيت القصيد في قصة هذا المطل لم تعرفه بعد . اتعلم ان هذا المطل كان
توتاً قبل عشر سنوات او اكثر قليلاً ! »

- « نعم » ، قال جريس ، « قد لحقت جلاله الاخيرة . كنتم تقلعونها في ذلك الحين »
- « قد ادرك في اواخر عمره انه اخطأ بغرس التوت في هذه الشجاعة . ولكن
صعب عنده ان يقلع بيديه ما غرس يده . فاوصاني ان ابدأ بالتقليع حالا بعد

موته ، وان انصب الزيتون الجبار الذي يعيش وينموا ويطعمهم في افقر ارض .
« هكذا كان . . . وانت ترى زيتونات هذا الكرم تتفاوت باعمارها ، لاننا
قلعنا التوت تدريجاً ، وشتلنا الزيتون افواجاً ، وقد دامت هذه العملية عشر سنوات
اذا كنت تذكر ! »

— « اذكر جيداً ، وانا اشتريت في تنصيب «الجلالي» الاخيرة . » ، قال جريس .
— « انت تعرف الان كم كلفت هذه النقبة من تعب وعناية ، وتشعركم يجب
ان تحافظ عليها . هي البركة الاخيرة من يدي جدك الكرسمتين ! فترحم عليه دائماً
واعتن بما ابق لك يداه ، فترضى عظامه في قبرها !
— « الله يرحمه كم تعب وكدا ! »

وانت ايضاً يا عمي تتعب اكثر من اللازم ، كأن كل نشاطه انتقل اليك .
ولا ارى عند ابي وعمي سعيد غيرتك على الارزاق . » ، قال جريس
— ابوك كل عمره هكذا ! متى ترك « الصمد » والمساس لا يعود يصلح لشيء .
والفلاحة ليست صنعة النشيط والذك ، بل فيها كثير من قلة الخواص . هي شبيهة
بشغل العرجية ، تعود على الكسل .

« شغل الفلاح الحقيقي هو نقب الارض ، وعمار الحفافي ، وتطعيم الاشجار وتقليمها ،
وعملك سعيد يجب المكاراة ، وهي بنت عم الفلاحة والعرجية . فالمشي وراء البغل
والحمار لا يتطلب نشاطاً كثيراً .

« ان اتكالي هو عليك يا جريس لسياسة الارزاق . وانا سأقدر اتعابك واعلم ،
قبل موتي ، ما يجب ان افعل من اجلك . »

— « انت ترى يا عمي كيف اشتغل ، وانا لا اريد شيئاً خاصاً لي . لا لزوم ان
تفكر بذلك . ولكنك كنت قلت مرة انك تريد ان تعمّر بيتاً صغيراً في
« البستان » لاسكنه واياك ، فهل ما تزال المسألة بفكرك ؟ »

— « فهمت ما تعني ، وانا افكر بالمسألة . ولكن لا ترى يا ابني اننا ما تزال مسبوقين
الان ، بعد ان اففقنا كل شيء . لنقب اراضيها ! اننا نريد ان نعمل من قيمتك ، يا ولدي
لانك اول ولد يتزوج في البيت من الفوج الجديد . تمهل قليلاً وسيصير على خاطرك .

IV

بعد الغداء جدد بوجريس اركيلته ، وعاد الى سن ادوات الشغل من فؤوس ومناجل وغيرها . كان حد الموقدة ، تجلس قربه مريم وتشتغل في حياكة زوج كاسات من المصوف لاختيها جريس ، تشتغله بالسنانير العديدة .

ام جريس تحبز في المراح المجاور مع ابنتها الصغيرة حنة . وحنا ذهب بعد الغداء الى بيت عمه سعيد ، يقطع ساعة من الوقت .

— « طوّل اخوك جريس مع عمه ، يا مريم » ، قال بوجريس ، « لا شك ان عمك لا يريد ان يسرّب البقرات الان ، وقد اشرفت الشمس ، وجريس لا يريد ان يتركه وحده » .

— « دائماً هكذا ! اكل الشغل على جريس ! كانه هو مسؤول عن كل شي . ومازوم بالجميع ! فاذا كان هو كامل المروّة ، يجوز ان يتركى عليه الكل ؟ ! هذه البقرات يجب ان تكون موزعة على كل البيوت . فاذا كان جريس لا يحكي ولا ينق ، لا يعني ذلك انه لا يتألم في داخله . وكنتم تقولون دائماً ان بفكركم عمار « حارة » في البيستان لتزوجوا جريس وتسكنوه فيها ، ولكن سكنتم هذه المدة ، لا اعلم لماذا » .

— « لا يقدر الانسان ، يا ابنتي ، ان يعمل دائماً ما يريد . لقد عاد عمك القسيس الينا كي يبقى هذا البيت متحداً بعياله الثلاث . وهو لا يريد ان نقسم شيئاً الا بعد موته . فهل تريد ان نزعله لاننا نشتغل اكثر من غيرنا بقليل ؟ ! والشغل الذي نقوم به زيادة عن عميك واولادهما يعملهما تقريباً القسيس ، ويساعده احياناً جريس . ولا تظني ان عمك ينسى اتعاب جريس فهو سيخصه بحصته او بقسم كبير منها » .

« مسألة زواج جريس لم نهلمها ، يا مريم ، ولكن الظروف لا تساعد الان . نحن طالعون من مشروع طويل ، دام عشر سنوات ، نقبنا خلالها كل اراضيها ، وانفقنا عليها كل ما كان معنا من المال . وقبل ان نرتاح ، على القليل ، سنة واحدة ،

لا يمكننا ان نعلم ونزوج جريس . وانت تعلمين ان البنت التي يريدونها جريس لا تعيش كيفما كان ! لا تقبل ان تعيش معنا .»

— « هي متفاهمة مع جريس وتعيش مؤقتاً ايها يريد وتريدون انتم . هي تحب جريس ولا تريد غيره . ولكن يأتينا في هذا الوقت شبان عديدون احسن من جريس في نظر عمي بوطنوس ، وهي تخاف ، اذا تأخر جريس اكثر من اللازم ، ان يضغط عليها ابوها ويزوجها . الا تعلم انت كم يجب الحياء معنا بوطنوس . والناس يعلمون ان معها مئة ليرة ذهبية خصها بها اخوها من اميركا .»

— « طيب سوف نرى يا مريم . ساكلم عمك القسيس بهذا الامر جدياً . واذا لزم الامر نحكي لعمك بوطنوس ولمرء عمك ، كي ينتظرا قليلاً ، ام ان يقبلوا بالخطبة على سنة .» وبينما كان الاب والبنت في هذا الحديث العائلي السري ، سمع صوت من الخارج : « يا قرايبنا وين انتم » ثم طرق باب القبو ، ودخل بوطنوس ، نسيب بوجريس بدعسة قوية رغم عمره ، ودخل وراءه بوسليم احد وجهاء القرية وهو من عائلة غير عائلة بوطنوس وانسابائه .

— « اهلاً وسهلاً ! اهلاً وسهلاً ! » ، قال بوجريس وهو يقف ، « هذه مفاجأة جميلة . . . تفضلوا ! . . . الى قرب النار ! . . . لمي معي هذه الاغراض يا مريم ! ضجرت منها .»

— « دائماً في الشغل ! لا راحة ! ولا احد ولا عيد ! . . نسيتم الضيعة . والقرايب والكل ! » قال بوطنوس بلمجة العاتب .

— « نسلى قليلاً يا عمي بوطنوس . كيف تريدان تقطع الوقت في الشتاء الفلاح يقدر ان يرتاح ! دائماً شغله فوق رأسه . وهذا الجيل المنحوس لا يتوقى شيئاً اسامت جريس الفأس الجديدة من ايام ليقطع حطباً ، فقطع بها حطباً يابساً وعظماً وصارت مثل المنشار ، تفرج ! »

— « بسيطة ، بسيطة . . . وكيف انت يا مريم ؟ نسيت عمك بوطنوس ؟ ونسيت كل شيء . » قال بوطنوس ملاغزاً ، وهو يقصد ان عنده ابنه ، عريساً لها . ففهمت مريم ما يقصد وقالت : « انت تعلم يا عمي بوطنوس اذا كنت انسى . ولكن الحق على الشتاء .»

— «اعتب على الجميع الا عليك ، انت بمعزة سليمة تماماً !»

— «الله يعزك ، يا عمي بو طنوس » قالت مريم نجيا .

— «كيف العيلة كلها يا بو جريس ! قال بو سليم ، «اين الشباب ؟ اين القسيس ؟

كيف ام جريس ؟»

— «كاهن نجير ؛ الله يسلم خاطرك . كيف جرى وشرفتنا » ، اجاب بو جريس

ولم يفسح بو طنوس المجال لبو سليم بالجواب ، بل قال :

— «اين القسيس ، زيد ان نزاه قليلاً !»

— «اتعرف ان القسيس يقعد في البيت ! من يعلم اين هو الان ، يمكن ان يكون

في « الصوانة » او في البستان ، او في المطل . اخذ البقرات ، وحلقه جريس قبل الظهر »

— « البقرات ! في هذا اليوم ! ما هذه الاعمال يا ابن عمي ! . . . اما عاد يعرف

هذا الكاهن ، لا عيداً ، ولا بطالة ، ولا رعية ! انسى ربه ورتبته الكهنوتية المقدسة

وتعبد للشغل ، كأنه يريد ان يبلع الدنيا ! . . . »

— « يا الله ! كم اردد عليه هذه الكلمات ! ولكن عبثاً ! » قال بو جريس .

— « عفواً يا عمي بو طنوس » قال بو سليم مستأذناً بالكلام . ثم التفت الى بو

جريس وقال :

— «نحن نعلم ، يا بو جريس ، نوايا القسيس الطيبة وضميره الحي ، وقلبه الطاهر

ولا يهمننا اشتغل ام لم يشتغل . ولكن على عين الناس ، يجب ان يحافظ القسيس

قليلاً على مركزه الكهنوتي . من زمن طويل يضيع الناس ويلغطون حول هذا

الموضوع ونحن نسكتهم . ماذا يقولون اليوم لو علموا ان القسيس يقضي نهاره بالمطل

في رعاية البقر ! ان ذلك لا يليق بقسيس محترم كبونا الياس ! الضيعة كلها تلغى بجديسه

وقبول اذا كان يريد ان يكرس حياقه للرزق ، فليذهب الى الدير وانت تعلم ،

يا بو جريس ، انه لولانا لما كانت تسمح له الرهبنة بمغادرة الدير كل هذه السنين . فنحن

فقول لروسائه دائماً ان رعيننا لا تتفق على كاهن غريب ، وان الاصلح لنا هو بونا الياس

وعلى هذا الاساس تتساهل معه الرهبنة . »

— «يا مريم اعلمي من قيمة عمك بو طنوس وعمك بو سليم . ذوقينا التينات . . . »

فأسرعت مريم حالا الى المد . اما بو طنوس فاعترض وقال : « لا لزوم ان تتعذبي يا مريم ، نحن اسنا غرباء . . . »

— «التينات طبخناهم لنا وللقرايب ، لا للغرباء . . . !» ارجع الى حديثنا بالحقيقة صرت سامعاً تسميعات عديدة وانا ساكت التحمل . ان قضية بونا الياس صارت حملاً علي ، وقد حاولت اقناعه بترك الشغل فلم يقتنع . فالان اذا كانت لا تريده الرعية كما هو فليرجع الى ديره . انا لا اقدر ان اقنعه . »

وما اتم بو جريس كلامه حتى سمع صوت جريس يقول : «اووهو جوا اعتر ، جوا !» — «هذا صوت جريس ولا شك ان القسيس آت معه . فتكلموا معه نهائياً بهذا الامر» قال بو جريس .

— «بدون شك ، اريد ان اضع حداً لهذه المستخوة !» . . . قال بو طنوس بجدة . بعد هنيهة دخل بونا الياس ، مبلل الثياب ، ينقُط الماء من لحيته ويتصبب العرق من جبينه ، وعندما رأى بو طنوس دب الهم في ركبتيه ولم يتوسم خيراً في هذه الزيارة ، يوم وحل وشتاء ، ووقت راحة وانزواء . لامثال بو طنوس ، بمن قاربوا الشيخوخة .

— «اهلاً وسهلاً بعمنا بو طنوس !» قال الكاهن وهو يدنو من نسيبه مسلماً عليه وعلى بو سليم .

— «اهلاً وسهلاً بك !» اجاب بو طنوس ، «الله يعطيك العافية ! هل شبت شغلًا وشتاء . ووحلاً اليوم !»

لم يجب القسيس بل توجه نحو النول فعلق الحبل والمنجل ، ثم عاد فترع حذاءه ، وجلس قرب النار يتدف .

ومضت ثوان وبونا الياس يدي في يديه ورجليه ، صامتاً يحرق بالنار كانه وحده فتامل بو جريس من هذا السكوت وادرك ان اخاه تأثر من كلمة بو طنوس التهكمية وفهم بو طنوس معنى هذا السكوت ، فاستدرك قائلاً :

— «الناس في زيارتك وانت في الحفلة ، في هذا اليوم ؟! هذا لا يجوز ، نحن ننتظرك من ساعتين ، لئراك ونسأل عن احوالك . ما شاهايناك كل هذه العيانة !»

رفع بونا الياس عينيه عن النار ، ونظر الى زائريه نظرة هادئة ، ثم تنهد وقال شوقكم الي غريب في مثل هذا الوقت . . . ليست هناك اشجار تطعم ، ولا كروم تنقى ، والقداس تم هذا الصباح . واي شوق يحملكم هذه المشقة في البرد والشتا . !
- « قيمتك عندنا » ، قال بو سليم ، « اكبر من كل هذا يا عمي بونا الياس . ولكن انت تبتعد عنا . لا ترونا ولا تسأل عنا الا نادراً . نحن اباكس ، نزيدك دائماً بينما لنسمع كلامك ونبتعض بارشاداتك . »

- « هذا صحيح » ، قال بوطنوس ، « الناس يقولون انك تكسر اكثر وقتك للشجر والبقر ، ليس لها حصتها من وقتك هذه الرعية ! »
سكت بونا الياس هنيهة ثم هز رأسه متألماً وقال :

- « الرعية لها كل وقتي ، وكل قلبي ، وكل حياتي . ولكن وقتي لا انفقه على لعب الورق ، وقلبي لا اوزعه في السهرات ، وحياتي لا تصرف في الزيارات . ولو كنت اردت ان ابقى كسولاً ، متوانياً لما كنت عدت الى القرية . وانا اعيش الحياة التي ترضي ضميري ، لا عقلية الناس . واذا كنت اعتني بالشجر والبقر فلا أنها جزء ضروري من حياة الرعية . »

- « ولكن يا بونا الياس ، على الانسان ان يراعي عقلية الناس قليلاً . ان الشغل الذي تقوم به هو شغل الرهبان الاميين ، البسيطين ، الذين لم يحصلوا على الدرجة الكهنوتية المقدسة . اما انت فلا يسمح مركزك الكهنوتي ان تفعل ما تفعل »
« انت تعلم كم انا احترمك » ، قال بوطنوس ، « وكم اريدك ان تكون خادماً للرعية ، قريباً من اهلك ومنا جميعاً . ولكن على شرط ان لا تحمل الرعية وتدعها تشكى منك بعد ان تكون تحبك . »

« انت تعلم اني مسؤول نوعاً ما ، تجاه الرعية لاني انا الذي الح ببقائك بيننا ، نزولاً عند ارادتها طبعاً . ولكن انت كاهن ، يا عزيزي ، انت تحمل سر الكهنوت في ضميرك وقلبك ، اولى بك بهذا السر ، ان يعمل صاحبه بالارض ويعتني بالبقر ، حتى ايام الاعياد ؟ ! »

« الكاهن في نظر الرعية ، يجب ان يظهر بظهور لائق لتجترمه ، والا فافا الفرق

الان بينك وبين بوحنا شاهين الذي ينام وغبار التراب على وجهه ويديه ! .

« ثم اني اسمع دائماً انتقادات الناس الدائمة عليك واسكت ، وكدت تخلق لي مشكلة في القرية . »

« انت تضطريني الان ، يا عمي بوطنوس » ، قال بونا الياس ، « ان البحث في موضوع كنت اود ان اعالجه بالعمل لا بالكلام . ولكن لا بأس ، سيرة وانفتحت الان ، وانا ما تعودت ان اتهرب من الحقيقة . »

« لقد اخرجتني ، يا عمي بوطنوس ، وانا رجل بسيط ، كنت اريد ان اقضي حياتي ساكناً . اعمل ما يوحي لي ضميري . انت تجرني الى الكلام لادافع عن نفسي . انا لست مستعداً ان اسخر حياتي لما يظنه الناس صواباً بينما انا اراه بنور ضميري غلطاً ! »
« انا كاهن ساذج ، عاجز ، بسيط ، لماذا لا تتركوني في زاوية حياتي ، بعيداً عن الناس ! . . . هذه تجارب الشيطان ! تحرك الناس ضدي ! . . . »

كان يتكلم بونا الياس بقلق دون ان يتطلع الى احد ، كأنه يتكلم لنفسه .
« طيب ! ماذا تريد ان تقول يا بونا الياس ! » قال بوسليم .

احس بونا الياس ان الظروف تقبلع من اعماق فكره شيئاً كان يريد ان يقوله للناس وهو صامت . ايجق له ان ينتقد الانظمة ، هو الكاهن الشبه امي ، المفروض فيه ان يستر هفوات الكهنة والرهبان ! « ولكن الصمت يجوز » ، قال بونا الياس في سره ، طالما هو لا يجيد بي عن الطريق القويم الذي توجهه علي تعاليم سيدي ، والذي يريني اياه نهرا وسجدي . اما متى صار الصمت خطراً علي ، فالواجب يقضي بان اتكلم . ألم يطرد السيد المسيح الصيارفة وباعة الحمام من الهيكل ! ألم يهدد الكتبة والفريسيين . ! »

تردد بونا الياس كثيراً ولكنه وجد اخيراً ان لا بد من التصريح بافكاره والا تقادى الناس في غيهم وظنوا انه يشتغل تفانياً على المادة .

« انا هربت من الديركي التخلص مما يريد ان يفرضه علي يا عمي بوطنوس هنا ! هربت كي لا ارى عرق جبين الرهبان الاميين والشركاء الفقراء المساكين يتصبب كي يريح القسوس الكسالى الذين هجروا سياسة الناس وسياسة الارض ، فلا

ينفعون الدين ولا ينفعون الدنيا .

« وجئت اخدم هذه الرعية ، لا لاستثمر تعب ابنائنا واتنعم باموال فقرائنا ،
واساير بساطة الناس الميالين الى الكهنة الذين يجارونهم في ضعفهم وكسلهم .

« انا لست مبشراً ، ولا واعظاً ، ولا سلطاناً ، انا خادم لهذه الرعية ، يجب ان
اخدمها في طقوسها الدينية واعلمها بالعمل لا بالكلام ، المحافظة على عاداتها وتقاليدها
النشيطة المخلصة ، التي تحفظ آدابها وحياتها ! اعلمها ما يبعتها عن الكسل
والتلهي بالاعمال القبيحة ، المنكرة . وانا لا يهمني ماذا يفعل هذا الكاهن او
ذاك لارضاء رعيته . ان مهوتي هي ان اصلح الرعية لا ان ارضي المتعنتين منها .
فاذا كانت الرعية تريدني كباقي الكهنة ، كاهناً عصرياً ، كما يقولون ، فما علي الا
ان اعود الى ديري ، اقضي حياتي في مجبسه ، او ان ازوي هنا في بيتي ، اذا سمح لي !
« نحن لا نقصد هذا ، يابونا الياس . قال بوسليم . نحن نريد منك ان تجاري
الرعية قليلا لتكون ساكنة ، وفي الوقت نفسه تقدر ان تقوم بالاعمال التي تريد .

« انت تعرف ان القرية تعثر بكاهنها ، كما تعثر بمختارها وبوكيل كنيستها ،
وتريد ان يحضر هؤلاء الثلاثة حفلاتها بهيئة لائقة . انت تقضي كل اوقاتك في
الهرية بعيداً عن الرعية ، حتى ايام الاعياد وهذا مستهجن عند الناس خصوصاً
والكنيسة تطلب منهم البطالة في الاحاد والاعياد ! »

— « انا اظن يابونا الياس ان المسألة بسيطة ، قال بوطنوس بحدة ، فاما ان ترعى
الرعية كما تريد هي واما ان ترعى البقر والشجر . اما ان ترعى الاثنين فذلك
مستحيل .

وقد تركت الناس في القرية يلهمجون في هذه المسألة ، ولا اعلم » اذا لم يكن
ذهب منهم وفد الى سيدنا المطران يعرضون عليه حل هذه المشكلة .

« تأكد اننا دافعنا عنك انا وبوسليم ، ولكن انت تعلم ان البعض لا يطيعون ،
وهم يقولون : نحن لا نريد ان نخدمنا مجاناً ، ولكننا نريده بيننا لا في الحقول
والكروم ! »

« يايب ! طيب ! كلامكم على الرأس والعين . سوف اتفاهم مع الرعية نهائياً

اما بحضور سيدنا واما في اجتماع عند واحد منكم . اظن انه اذا كنت في سني
بحاجة الى مواعظ الرعية ، لا اعود صالحاً لخدمتها . فانا في هذا العمر است مستعداً
ان اغير حياتي . واذا كنتم تريدون ان نذهب لمقابلة سيدي لا بأس ، انا مستعد .
- « على أي اساس تريد ان تتفاهم مع الرعية » ! استفهم بوطنوس .

- « سأرى ما يلهمني به الله » . قال القسيس بحزن .

- « هذه فكرة موافقة . يا عمي بوطنوس ، قال بو جريس ليسكن التفاهم

نهائياً مع الرعية ، اي مع وجهاء القرية الذين يمثلونها . واذا جاء المطران كان احسن
واحسن »

ثم وقف بو جريس على حدة وقال له بصوت خافت : « دعه يا عمي يتفق مع
الرعية ، واذا لم يتم الاتفاق فليرجع الى الدير . لا لزوم ان تكون متكدرًا انت ،
نحن نريد رضاك قبل كل شيء . »

« انتم تعلمون قلبي من نحوكم ، قال بو طنوس ، ولكن القسيس يزيدنا ! لا
يطل على الرعية الا وقت الضرورة ، هذا لا يجوز . »

- « سأتكلم معه هذه الليلة . وانت يا عمي بوطنوس هي . الاجتماع عندك ، ولننته

من هذه القصة بصورة جديدة » ، قال بو جريس

« - طيب ، طيب » قال طنوس وهو يعود الى مكانه قرب النار ، « لم نذق

تيناك . تفضل يا بو سليم ، تفضل ،

« جئت بالجوز المكسر ايضاً يا مريم ، انا اقدر على الجوز ؟ ! . . . على كل حال

تسلم دياتك يا مريم ، لا بد ان تكوني كنتي ولو بقي يوم واحد من

عمري . . . - »

فابتسمت مريم وفاجأتها حمرة الحياء وبقيت صامتة .

- « والان يجب ان ننصرف قبل ان نعلم ان نعلم ان نعلم ان نعلم ، بعد يومين

نرى ما يجد اذهب يا بو سليم ؟ »

- « تفضل ، حاضر » قال بو سليم .

عادت ام جريس من « حارة القز » المجاورة للبيت حيث كانت تختبئ مع ابنتها

الصغيرة حنة فأسرعت مريم تطلع امها ، وهي لا تزال في المد تفرش الخبثات ، على زيارة بو طنوس وما جرى في تلك الزيارة . وافهمتها ان بو طنوس لم يكن راضياً قلبياً عن النتيجة .

— «هل قمت بالواجب يا مريم ؟ هل قدمت صحناً من التين الجديد؟ هل عملت اركيلة من العجميات لعمك بو طنوس ؟» قالت ام جريس — « طمني بالك ، عملت كل ما يلزم » ، قالت مريم . — « هل عزمتهم على الفراني بدهن ؟ »

— « ما فطنت للفراني ، وابي لم يذكرني . خيها بغيرها . ولكن كوني مرتاحة البال . كانوا مسرورين . قدمت ايضاً صحناً من الجوز المكسر ، مع التين ، الا يكفي ذلك ؟ قالت مريم متضجرة .

— « يا حيف عليك يا مريم . الا تعلمين ان بوطنوس هو بسدون اضراس ؟ هذا مشهور عنه ، كيف يأكل الجوز ، لا شك انه ضحك عليك ، اياك ان تعيدها بعد ، خصوصاً وعمك بو طنوس ينتقد كثيراً . ولكن انتقاده لا يظهر الا بعد حين وانت يلاحظك بصورة خاصة ، وتعرفين ما يقصد . خذي صحناً من التين لبيت عمك ، اتأخذينه بعد اسبوع ، لماذا هذا الاهمال ؟

— « الآن ؟ » ، قالت مريم بحيرة :

— « طبعاً الآن . ما يمنعك عن ذلك ، الا تعلمين ان مرة عمك تعتب كثيراً ؟ » انصرفت مريم لتنفيذ اوامر امها . وبينما كانت تملأ الصحن تيناً قالت لها امها : « الآن كتري جوز على وجه الصحن ؟ »

وكان بو جريس يسمع الحديث ولا يقول شيئاً لانه شعر ان الحق عليه . كان يجب عليه ان يذكر مريم بتقديم الفراني السخنة مع القورمة .

وتابعت ام جريس فرش الخبز على حصيرة نظيفة ، مخصوصة بذلك . وهي تستمع كلمات لم يفهما زوجها ولا انتبه لها الكاهن المصلي في زاوية من القبو على الديوان الى الجهة الغربية .

— « هل ذهب احد الى الزيتون يا بو جريس ؟ » قالت ام جريس من المد

المجاور ، حيث كانت تشتغل .

— « واي متى انقطع المطر لنذهب الى الزيتون ؟ ! ان ارض الزيتون لا تندعس

اليوم في هذا الوحل » . اجاب بو جريس .

— « الارض المرملة تندعس جيداً ! كيف تكون ارض الزيتون بعد ثلاثة ايام

وليال من المطر القوي ؟ انها مكسوة بدون شك . واذا امطرت هذا الليل ينظم

الزيتون الساقط كله بالتراب »

« عفاكم ، عفاكم ، ! اتركوا كل واحد على الآخر ؟ .. »

— « انت تظنين اننا كنا قاعدين بدون شغل ؟ .. الناس يلوموننا على كثرة

الشغل وانت تطلبين اكثر » قال بو جريس بشيء من الزعل .

— « الناس لا يلومونك انت ؟ .. اجابت ام جريس بشيء من التوبيخ .

« على كل حال الشغل يتبدأ بعرضه على بعض ، لا يمكنكم غداً ان تبحثوا

التراب وتشيلوا الزيتون المطموم من تحته »

— « ما في الجو شتاء . طمئي بالك . وغداً نذهب باكراً فنلم الكل دفعة واحدة .

سكنت ام جريس وتابعت فرش الخبز . ثم بدأت تتمتع بصوت خافت :

« وسعيد ماذا يعمل اليوم ! يعني اذا كان يكارى لا يجوز ان يساعد اخوته وقت

يكون في البيت ! حقيقة ان هذه المهنة تقلل اخواص ! بو موسى لا نلومه ابنته مريض

وهو صحته على قدحها في هذه الايام . وبو جريس متى كان الصمد والذير والمساس

بخيير هو بخير !

« لا اعلم ما تكون حالتهم لو تركهم هذا القسيس . مسكين ما اقل حظ ، يضوي

اصابعه للناس ولا احد يقدر جميله ، الدنيا حظوظ . يخدم الكل ، والكل يتذمرون

ثم وجهت الكلام الى بو جريس وقالت :

— « غابت الشمس يا بو جريس الا تريد ان تحلب « الكحلا » ؟ »

وكانت انتهت من شغلها فجاءت الى القبو وجلست قرب النار وبعد هنيهة

قالت :

— « يجب ان تنبئه يا بو جريس « للبكيه » فقد صارت على لياليها . يجب ان

تسهروا عليها من هذه الليلة وصاعداً »

اطبق القسيس شجيمته واعادها الى « الطاقة » ، ثم دنا من الموقدة وقال :

— « الله معك يا مرة اخي ! كيف هذه الحبرة ؟ عسى على خاطرك . »

— « بدعالك يا سلفي وبركتك » قالت ام جريس

— « بركة القديسين ، يا ام جريس . اعطني الوعاء لاحتلب لك البقرة » قال

القسيس .

— « الا يكفي تعبك كل هذا النهار . خل عنك ذلك . في البيت غيرك لهذه

الشغلة . قالت ام جريس ، اجلس قليلاً وخبرني ماحدث بينك وبين عمنا بو طنوس .

« بو طنوس يا سلفي يحبنا كثيراً ويريد خيرنا لذلك لا يجب ان ترعل منه .

الناس لا يتركونه على دينه . وانتقاداتهم لا تبطل ابداً . لا اعلم ماذا يريدون .

يوماً يريدون كاهناً عصرياً يساهرهم ويلاعبهم بالورق ، يوماً يطردونه ويطلبون كاهناً

من الطراز القديم . ثم لا يطول الوقت حتى ينتقدون كاهنهم الجديد . لقد احتاروا

في امرهم وحيرونا نحن ايضاً »

— لا بأس سأطول بالي عليهم . قال بونا الياس ، ما زالت نواياهم حسنة . على

ما اظن . وسوف افهمهم ، بوجود المطران اذا شاؤوا . ان الشغل حتى يوم الاحد

افضل من الكسل والتواني .

على كل حال لم يكن بو طنوس زعلان ، وهو قلبياً من جهتي ، ولكنه ضعيف

مع المتعنتين ، سوف ينجبرك بو جريس عن كل ما جرى .

« اين الوعاء هاته . لا تعب الا تعب الفكر يا مرة اخي ، الشغل عباده ،

وتسلية في الوقت نفسه . الايدي الكسولة تتعب وتل اكثر من الايدي العاملة »

ولما داته على الطنجرة المغسلة والمياه للحليب ، اخذها ومضى الى المراح

الملاصق للقبو .

لما عاد بونا الياس من المراح حاملاً طنجرة الحليب ، كانت العيلة قد تجمعت كلها

حول الموقدة . مريم تلاحظ القدر على النار . وتحرك قليلاً « المخلوطة » في مقلاة

صغيرة . اما حنة فمنهمكة باحضار كل لوازم العشاء . فقد وضعت الطبلية الواطية

قرب الموقدة وصفت عليها الصحن القيشانية الملونة ، والملاعق الخشبية السبيكة ،
ثم تناوات من المعجن ، المركز على برميل قريب ، لفة من خبز الصاج المشرقاني والقمحا
مطوية على طرف الطاولة . وبعد ان اتمت هذا الفصل التمهيدي للعشاء دنت من
اخيها وسالته ان يحمل سراج الزيت الصغير ويرافقها الى المد .

غابت حنة نحو عشر دقائق وعادت حاملة صينية من القش ، عليها صحن عديدة
ملانة بجواضر البليت من زيتون اسود واخضر ، وتين مطبوخ بالدبس ، وجبن .
فصفت هذه الصحن في وسط الطبلية وتركت الصينية على الارض ثم راحت تجلس
قوب امها منتظرة ان تصب الطبخة .

كانوا كلهم صامتين ، متألمين ، على وجوههم علامات الهم والكدر ، ينتظر
كل منهم الاخر ان يتكلم .

— « هاتوا خبرونا ما سمعتم في الضيعة » ، قالت ام جريس ، « ماذا قال لك
عمك بو طنوس يا مريم »

— « ما كان في البيت ، يا امي ، ولكن مرة عمي خبرني ان عمي بو طنوس زعلان
كثيراً من بعض اهالي الضيعة ومن عمي القسيس ايضاً . وسألني عما جرى عندما
زارنا عمي بو طنوس اليوم فخبرتها . فقالت لي الله يساحه ، بونا الياس ! الا يعرف
كم يحبه بو طنوس ؟ كان يجب ان يسايره قليلاً . ثم زادت بصوت منخفض « نحن
لا يوافقنا يا بنتي ان يأتي كاهن غريب الى الرعيّة يشغلنا بالنطارة عليه . نحن لا
يوافقنا الا بونا الياس . هو منا وفينا ، وهو كاهن طاهر ، لا احد يقول عليه كلمة »
ثم توقفت عن الكلام هنيئة كأنها تتودد في ما تريد ان تقول ، ولكنها قالت
اخيراً : « غداً يوم الاجتماع ، ادير المسألة مع عمك بو طنوس . لا يمكن ان نتنازل
عن القسيس »

لم تسكت مريم بضع ثوان عن الكلام حتى قال جريس : كانوا يتكلمون
عند بو شاهين بينما كنت ماراً على الطريق ، قرب بيته ، فسمع واحد يقول :
« ايليتي بونا الياس ان يوافقنا في المآتم والاعراس والاعياد وليس عنده بدلة
تلبس ! واي متى رافقنا فالتناس يسألون دائماً : اين خوريكم . ونحن نخشع له

الاعذار» ثم قال بوعبد الله : « يا جماعة المثل يقول : لا تعرفوني حتى تعاشروا غيري . و نحن عاشرنا غيره عندما مرض منذ سنوات وعرفنا . نريد قبل شيء . كاهناً يريح بالناس بسلوكه وآدابه . ويقوم براسمينا الدينية بورع وتقوى . وما تبقى يصبح ثانوياً . انسيتم الان كيف كانت حالنا مع بونا قليموس وبونا مخايل وبونا بولس ! اتريدون ان نقضي الليالي نواطير على الخوري والارامل !

» ان بونا الياس هو انصب كاهن لرعتنا . هو لم يقصر مرة بواجباته ضمن القرية ، سواء في الكنيسة ام في عيادة المرضى والسهر عليهم . متى ثقلت حالهم ولم اسمع ان الناس يلومون الكاهن لتقواه وتنسكه وجهه للشغل .

واكمل حنا قائلاً : « سكت الجميع بعد كلام بو عبد الله وشعرت ان اناساً لم يرقهم هذا الكلام فهموا بالانصراف ، لذلك مشيت انا حالاً خوفاً من ان يروني . » ثم وجه حنا الكلام الى ابيه قائلاً : « والله يا ابي ، ان المطران وبعض افراد من الرعية هم الذين ينزعون بالكاهن الى اعمال الباطل . هم الذين يخلقون له التجارب ويسهلون طرق الوقوع في الخطايا ، ثم يلومونه بعدئذ على اخطائه ! .

» هل الكاهن سعدان يرقصونه كما يريدون ، ومتى يشاؤون ؟ كان عندهم كهنة من هذا النوع لماذا طردوهم ! ؟ . . . ولكن الحق ليس على الرعية بل على الراعي الذي يسمع للدساسين والنامين . وهو لا يفهم شيئاً عن احوال الرعية !

— « حنا ! . . لا تفتح سيرة سيدنا المطران » . قالت ام جريس بحدة ، « سيدنا هو اب الجميع . لا يفضل واحداً على الآخر . ولكن الناس يزعمونه بشكاويهم ومطالبهم فيعمل لهم ما يطلبون ! »

— « ولكن هذا هو الخطأ ! هو يعمل لهم ما يطلبون قبل ان يعلم اذا كان طلبهم حقاً ام باطلاً ! وقد سمعت ان وفداً من ثلاثة اشخاص ذهب الى المطران يشتكي مدعياً ان سلوك عمي القسيس لا يليق به . وسوف ترون ان المطران سيسمع لهم ، فيأتي هو بنفسه او يرسل وكيله ليحقق بالامر ، وهناك تكون الخسائر والولاثم والوساطات ، تقع كل مصاريقها على اهل القرية . انا اذكر كم

تكلفت الضيعة على خلفها وقت كان بونا قليموس كاهنا للرعية . وقد جاء الوكيل
اكثر من خمس مرات ليس الا ليزيد الخلاف ويأخذ الايرات الذهبية من هذه
اليد ومن تلك !! ! . . . »

— قلت لك ، يا حنا ، لا تتكلم على سيدنا قالت ام جريس بغضب ، حقيقة
ان هذا الجليل لا يحترم احداً ! الله ينجينا من هذا الجليل ومن وقاحته وقلة هيئته ،
اذا كانت الرعية لا تتفق ماذا تريد ان يفعل لك المطران ، أيعمل العجايب ! . . . »
— « طيب ، يا امي ، معك حق ! . . . سكتنا ! . . . ولكن تذكرني
كلامي ! وسوف ترين ما سيكون . ان سكوتنا هو الذي يقوي المطران وغيره
علينا . انت تظنين ان كل الكهنة مثل عمي ، يخدمون لوجه الله الكريم ، ولا
يلكون الا ثيابهم العتيقة وشحيمتهم القديمة . . . ولكن تأكدي ان ألوف
العثمانيات في صندوق سيدنا يزيدنها كل يوم بواسطة هذه الاخلافات التي تحدث في
الرعايا . . . »

— « يا بوجريس اسكت هذا الولد عني ! لا اريد ان اسمع كلام الكفر في البيت ! »
قالت ام جريس وقد عيل صهرها ، « مالك ياسلفي ساكت عن هذا الكلام ! . . ان
بيتنا بيت كهنة وقداسة من قديم الزمان ، أيجوز ان نسمح لاولادنا بان ينتقصوا
رؤسائنا على هذه الطريقة ! . . . »

— « مالك ولهذا البحث يا حنا ! أقادر انت ان تصلح ما افسده الناس ! » قال
القسيس بهدوء وحزن . فسكتت ام جريس وادركت ان سلفها يجبذ كلام حنا
نوعاً ما .

« سننتظر لنعلم ما يمكن من امر الوفد الذي ذهب الى المطران » أكمل بونا
الياس ببساطة القديسين واتكالمهم المؤمنين . ان الله يدبر كل شيء . . الله يدرك
النوايا والاعمال . ألم يقل لنا : شعور روموسكم كلها محصاة ، لا تخافوا ! »

V

علم بو طنوس وهو في طريقه الى البيت ، عائداً من عند نسييه القسيس ، ان وفداً ذهب الى المطران يشتكى

« اذاً صارت المسألة نكايات دنيئة ؟ ! » ، قال بو طنوس ، « اذ انهم يفعلون كل ذلك نكايه بي ، لا تدمراً من سلوك القسيس ! .. واي ذنب لهذا الكاهن المسكين اذا كنت انا اخذت وكالة الكنيسة منهم ؟ »

وصل بو طنوس الى البيت غاضباً ، حائقاً ، واحياناً تفلت منه ، بجمجمة ، كلمات الوعيد ، فلبس شرواله الجوخ الاسود ، وساكته الشتوية ، وغير طربوشه وتناول مظلمته ، ثم بعد ان اكل لقمة على الواقف ، هم بالرحيل .

وكانت ام طنوس مشغلة بشؤون بيته فلم تنبئه لحيي . زوجها الا وهو على اهبه الرحيل . فاسرعت نحوه وقالت : « الى اين من غير شر ؟ الى اين ؟ ماذا جرى ؟ - « جرى ان الناس لا تنتهي مشاكلهم ! قال بو طنوس بحمق ، ولم يجدها

الآن الا هذا الكاهن المسكين سلاحاً للنكوزات والضغائن . وانا ذاهب الى المطران لاضع حداً لمهازل هؤلاء الناس . كلهم نفر لا يتجاوز عدد اصابع اليد ، ويريدون ان يشوا الضيعة حسب عنعناتهم وما ربههم الخبيثة .

« والقصة كلها على وكالة الكنيسة ، فقد امست هذه الوظيفة موضوعاً دائماً لمناوراتهم ومورداً غزيراً للمطران ونائبه .

« سأضع لاحداً ! إما ان لا يسمع سيدنا هؤلاء الناس ، واما ان اسلمه . فأتيت الكنيسة واطلب من هذا القسيس ان يقدس لنا وحدنا او يعود الى ديره ! »

« ولكن طول بالك ، يا بو طنوس ، اتريد ان نذهب في هذا البرد القارس ؟ عمره لا يكون مطارين ! .. معك وقت طويل ، كل هذا الاسبوع . ومن

اليوم الى الاحد يفرجها الله »

- اين طنوس ؟ اليس في البيت ؟

- بلا هو في البيت ولكنه نزل الى القبو ليأتي بقليل . من الخطب لاجل الليل

- ائذه له ليعجل . سأرسله محلي الى المطران ليقول له ، عن لسانى ، كلمة

تقطع عقله . انا اعلم عقلية المطارين ، واذا لم نسرع بافهامه الحقيقة ، سيكون ضد
بونا الياس واكثرية القرية .

لم ترض دقائق حتى عاد طنوس من القبو ، فقال له والده : البس ثيابك حالا
سأرسلك الى عند سيدنا .

بدأ طنوس بلبس ثيابه بينما كان والده يتكلم :

- قل لسيدينا اذا كان لا يضع حداً لهذه النكايات فاني اترك وكالة الكنيسة ،

والكنيسة ، والازم بيتي ، واطلب منه ان يأذن لبونا الياس ليقدر لي في البيت يجب
ان تنتهي من هذه المهزلة .

« قل له ان الذين ينتقدون القسيس لا يتجاوزون عدد اصابع اليد . اريد

ان يعمل لنها كل يوم نعمة من اجل هؤلاء المشاغبين ؟ ! وانا لست مستعداً ان

ان استقبل احداً في بيتي والبلد نفسي ، من اجل امور تافهة كهذه ! . . . يجب

ان يفهم ذلك ! يجب ان يتخسروا هم ، ليعلموا قيمة النكايات والدسائس . فافا

لست مستعداً ان احمل المصاريف الباهظة ، كل مرة ! »

وسكت بوطنوس كأنه يجهد فكره ويستوحيه ما يجب ان يقول .

اما طنوس فقد لبس شرواله الرصاصي الجليل وشد منتيانه الخمي الاسود ،

ولف زناره الحريري الطويل ثم تناول ساكته الكعجية الجديدة . وبعد ان مر امام

المرأة الكبيرة ، تناول جزمته البنية اللون ولبسها ، ثم فتح الخزانة واخذ طربوشه .

وبينما كان يركزه على رأسه ويلف عليه وعلى اذنيه لفة الصوف ليتقي الريح البارد ،

قال لوالده :

- اشئ . آخر ؟

- لا ! ولكن كن شديد اللهجة ولا تخف احداً . يجب ان يعلم ان المسألة لم

تعد تطاق ، نحن عندنا شغل غير هذه التوافه »

— طيب ! فهمت .

— خذ المشلح والشمسية ، قالت ام طنوس . ولا تتأخر في الطريق اترجع قبل الغياب .

— ولكن مسألة عدم استقباله في بيتنا لا يجوز ان نبحث فيها ، قال طنوس ، انا اتركها له ، اليس كذلك ، يا ابي ؟

— طيب دبر المسألة كما تريد ، مع السلامة .

لم يمضي على ذهاب طنوس اكثر من ساعة حتى شاع ان نائب المطران آت الى القرية نهاو الاحد القادم ، ليتغدى ويحقق في قضية كاهن الرعية . فأنغم بو طنوس لهذا الخبر وكبت عواطفه منتظراً رجوع ولده من زيارته ليرى النتيجة . نائب المطران يزور القرية . هو موضوع واسع للساسنة القرويين ليعلقوا عليه ويتوسعوا في تأويله وتفسيره . موضوع تسلية وسهرات واجتماعات سرية يستمر كل هذا الاسبوع ، حتى يوم الاحد ظهراً ، على الاقل . اذ ذاك تحل المشكلة فيفرح كثيرون وينغم كثيرون .

وكيل الكنيسة والمختار والكاهن هم القرية . ومهما كانت هذه الوزارة نافعة وملائمة لجمهور القرية ، لا بد من المعارضة .

وقد اضطربت الضيعة كلها للخبر الجديد ، الا شخصاً واحداً ، بقي هادئاً ، مستكناً ، مؤمناً بصلاحيته سلوكة ، متكلاً على العناية العليا لتقرر مصيره ، ذلك الشخص هو بونا الياس .

هو مستعد لكل شيء بشرط ان لا يتغير مجرى حياته النسكية : لقد فكر حتى بالانسلاخ عن هذه الرعية المحبوبة ، وهذه الارزاق التي رباها جده وابوه على حبها ! فكر ان يهجرها ويتزوي في محبة من محابس الرهبنة : قريباً من الله ، دانياً من صميم الطبيعة .

اما بو جريس فقد خاف كثيراً من العاقبة ، ليست اول مرة تقدم شكوى من هذا النوع بحق اخيه ، مدبر بيته واملاكه . انها المرة العاشرة او اكثر . وكل

مرة كان يوصي القسيس بالا بتعاد عن الارض والتقرب من افراد الرعية .
ولكن عبثاً حاولوا ذلك ، فلبونا الياس طريقة خاصة للتقرب من افراد رعيته
هي طريقة العمل واعطاء المثل الصالح ، وهي الخدمة المجانية ، الخدمة المجردة
من كل غاية الا محبة الناس وخيرهم .

VI

كان صباح الاحد مشمساً ، ميراً ، « العيانة » قد انتهت في الليل ، فطلع النهار
على سماء صافية من السحاب ؛ وظهرت الشمس بعد الخجابه اسبوعاً كاملاً ، ما تراءت
خلاله الا فترات قصيرة .

وصل بونا الياس الى الكنيسة مع طلوع الشمس . ففتح بابي الرجال والنساء
ورتب بعض الاواني ، ثم فتح شحمته وطفق يتمشى امام الباب الشمالي مصلياً .
لم يكن هندامه مبتذلاً كعادته . فقد غدا ابن اخيه جويس وقص له شعره
ومريم فرشت له ثيابه ونظفتها ، ومسحت له حذاه دون علم منه . حتى كان مظهره
لا ينقص كثيراً عن كهنة القري البسيطين ، الذين لا يعطون المظاهر اهميتها ، بل
يكتفون بالبسيط اللائق .

كان بونا الياس يتمشى ويصلي . بين آونة واخرى يقف ويصعد نظره الى
الجبال الملتحفة بالثلوج ، وينحدر بنظراته من القمم العالية حتى تغور النظرات في
اعماق الوادي الهاوية امامه في الاغوار كما يهوى الغواص في مجاهل المياه . وعندما
تنتهي رحلة ناظريه ويتم استعراضه ، يعود الى صلاته ويعشي .
ومركز الكنيسة ، منفردة على كتف الوادي الى الشمال الشرقي من القرية ،
بين الحرش والكروم وبساتين التوت ، كان يوافق مزاج هذا المتعبد للارض والسماء .
فهي بعيدة عن البيوت ، في محيد عن الطرقات العامة ؛ لا يستوحى من كان بقربها
الا الورع والخشوع .

اغصان السنديان والعفص من الشمال والشرق واغصان الزيتون وقضبان التوت من الغرب والجنوب كانت تصطدم بجدران الكنيسة ، ثم تكمل غوها مرتفعة ، كأنها تتسلق الجدران وتكون باقات كبيرة من الاخضرار قفرح قلب بونا الياس وترين الكنيسة .

وقد حاول كثيرون ان يقطعوا بعض السنديانة الكبيرة الطاغية على سطح الكنيسة فأبى بونا الياس ان يصير ذلك ودافع بكل قواه عن جو الاخضرار المحقق بالمعبد الصغير .

كان كل شيء صامتاً عند بدء صلاته . فحرارة الشمس لم تكن بعد تغفلت في الاشجار الغضة ، والمنخفضات المظلمة ، الخباء ، حيث يكنكن الطير في ايام كهذه . والسواقي المنحدرة من الشرق : هناك في خورير شلال صغير وهنا في رقرقة خافته ، لم تكن توحى للاطيار الا بقايا الهد الخفيف .

ولكن بونا الياس يتمشى منذ نصف ساعة والحرارة تدب في اعضاء الطبيعة دبيب الصحة المستعجلة في الجسم الناقه الغتي .

بونا الياس يقف من جديد . يطبق الشحمة ويضع اصبعه علامة بين صفحتيها . الاشعة تتدفق من اعلى القمم تحمل حرارة جديدة . يحس من تنصب عليه ان فيها شوقاً الى عائلة الارض ، ثم تتألاً انعكاسات انوارها على اعضاء الطبيعة المبلله فيبدو كل ما على الارض مبتسماً فرحاً يهلهل للحياة .

والبحيرات الصغيرة المنتشرة في الامكنة المظلمة وفي قلود الصخور تتألق بالانوار الساججة على ادبها كأنها فوارات من الانوار ترتفع الى امها الشمس . والعصافير ارتاحت الى الحرارة المتزايدة ، فققرت من مخابئها تنتحي الصخور والاغصان اليابسة خوفاً من وكف الاغصان النضرة . وهي تنتفض مرات متواصلة لتبدد رطوبة الليل وكسل الايام الماضية وتسطلي بالحرارة المنهمرة من الفضاء .

وهل من صورة حية ، منشدة ، مسبحة ، اروع من هذه الصورة الشاخصة الآن الى العلا . تضم الانسان في اعلى درجات تصوفه والطبيعة في يقظة شعورها واحساسها بالقوة العليا المسيره ، التي تعطي بمطارها المطول ، وتغمر بانوارها المدفئة ، وتبقي

الاشواق حية ، دائمة ، في الطبيعة والانسان : آناً الى المياه العذبة ، وحيناً الى الحرارة المنعشة ؟ !

اما الاطيار الصغيرة ، المجاورة بونا الياس ، والكنيسة ، فأنها تشب ايضاً من ملاحظتها الصغيرة ، وتهرب من الاغصان الى جدران الكنيسة وشبابيكها وهي لا تخشى هذا الكائن الاسود ، يمثل كل احد دوراً واحداً ، متشابهاً : يروح ويحيى امام الكنيسة . ولم يكن مرة ليقوم بحركة خفيفة ولا يرمي حصاة مزعجة ، بل كان اذا رأى عصفوراً يقترب من الساحة ، قصر مسيره وعدل مساحة تشبهه كي يطمئن جاره الصغير . والطير كانت تلاحظ ذلك مرة بعد مرة فتأنس بهذا الشبح المتحرك بتؤدة وتأمل ، والجامد حيناً آخر ينظر بعطف وحنان .

وبونا الياس شعر بهذه الصداقة الصامتة فاراد ان يثبتها ويقويها بمظاهر العطف والمحبة لذلك كان غالباً ما يحمل في جيبه كمشة من الهرغل الناعم ، ينثرها قرب الكنيسة الى جهة الحرش ، قبل ان يبدأ بصلاته .

اما اليوم فقد حمل كمشات عديدة من الهرغل اذ علم ان الامطار منعت اصدقاءه من التغذية خلال اسبوع ، فخاف ان تهجره وتنسب اليه الاهمال والقساوة . وها هو الآن يرش الهرغل هنا وهناك ، في كل مكان نشفته الشمس قليلاً ، وهو يرمي به على الشبابيك ايضاً حيث يلجأ الدوري بصورة خاصة .

وبعد ان يفرغ القسيس جيبه ، يعود الى التأمل بهذه اللوحة الشتوية الدافئة ، تعرضها الطبيعة هذا الصباح . وهو يسمع الان اصوات الاولاد يسوقون المواشي الى الحقول التي تضربها الشمس باكراً . وهذه ابقار تتسرب الى الحرش المجاور ، تهم بالمرعى وتحاف الاعشاب المبللة فتمشي وتلتفت مفتشة عن عشبة نشفتها الشمس اكثر من غيرها . فيفرح بونا الياس بنشاط الاولاد يسكرون يوم الاحد ويسرحون ابقارهم قبل القداس ، تستمتع هي ايضاً بجمادة الحياة .

واذا نظرت الى الاشجار الفيتها جامدة ، صامتة ، حاسرة الاغصان كأنها تعتمد بروح الانوار ، بعد ان تعمدت بالامطار وهي تشاق افح الشمس كما تشاق الحبيبة المغيبة لفح القبل .

بدأت العجايز تصلن الكنيسة ، وانتهت فترة الطمانينة والتأمل والصلاة عند الكاهن الطاهر . ففارق بونا الياس شحيمته ولها بجلدتها العتيقة وراح يضعها في طاقة صغيرة ، فوق جرن الماء المقدسة ، قرب باب الكنيسة ، كي لا ينساها عند انصرافه .

بعد ساعة يصل نائب المطران ليقدر ، سيكون قداساً حافلاً بدون شك . عندما صارت العجايز خمساً أو ستاً أعلن بونا الياس انه مستعد ان يسمع من يريد ان يعترف ، وأعلن ان القداس الحافل سيكون الساعة التاسعة ، ثم دخل كرسي الاعتراف وانتظر .

بعد قليل بدأ القرويون يصلون جماعات وافراداً . منهم من يقف امام الكنيسة متحدناً متسلياً ، ومنهم من يدخل الكنيسة مصلياً او معترفاً او مبتعداً عن القال والقال والتعليق على زيارة نائب المطران .

وقد استمرت هذه الحال حتى وصل النائب المحترم يرافقه وكيل الكنيسة ، وشيخ القرية وبعض الاعيان . ولم يتمكن بونا الياس من التسليم عليه وتقبيل يده لانه كان ما يزال يسمع اعترافات الناس بخطاياهم .

دخل النائب الهيكل بتلك الابهة التقليدية التي ترافق الاحبار من قديم الزمان من بني اسرائيل القدماء ، يخف به الناس من جوانبه الثلاثة ، فلا يتركون له الا الامام ليمشي . وكل من حوله ينتظرون ادنى اشارة منه ليتحركوا ، ويستفهموا ويلجوا بالسؤال حياً بالتنفيذ العاجل .

اما هو فقد سجد امام الهيكل مصلياً بعض ثوان ، ورأى المقعد الرفاصي الفخم المهيأ له ، فصعد بدون ان يستفهم واستوى في كرسيه كانه قاض من قضاة الاسرائيليين . ظل صامتاً ، متأملاً والناس لا ينظرون الا اليه ، ولا يتهمسون الا عنه ، وهو بين الفينة والفينة يرمقهم بنظرة فيها الكثير والعظمة والسؤدد ، ظل صامتاً حتى خرج بونا الياس من كرسي الاعتراف وجاء ركع على ركبة ونصف ويقبل يده ويأخذ تعليماته . وعندما سجد القسيس تلك السجدة المتواضعة ، حاسر الرأس ، بظهر الساذج الفقير ، رأى الناس عبداً طائعاً يخضع لسيد قوي جبار . ولم يستفهموا

ذلك لان روح الطبقات متأصلة في نفوسهم . بل ان الكثيرين منهم اسفوا ان يكون خادمهم هكذا حقيراً ، وحسدوا العظماء الذين يتمتعون نواظرهم برأى الاحبار العظماء وملابسهم الجريئة الملونة ، تلك الالوان البنفسجية الجليلة ، والحمراء المهيبة .
تبدأ - حالا ، قال النائب الاسقفى ، بلهجة الأمر . فأومأ بونا الياس الى خدام القديس الحبري المصطفين على المذبح ، فسمعت الاناشيد حلالاً وقام الاسقف يبدأ بلبس ثياب الذبيحة .

الناس ما يزالون يقدون الى الكنيسة ، ليس من القرية فقط بل من القرى المجاورة التي عرفت بجبي . سيادته . والمتطوعون خدمة القديس كانوا يصعدون المذبح ليتحنوا باصواتهم وليهربوا من الازدحام في الكنيسة .

اتم الاسقف ارتداء ثيابه فمسك بعضى الراعية ومشى نحو المذبح يكمله التاج المذهب وتجلله الثياب المزركشة المقصبة ويحليه ذلك الوقار المنبثق من جو المعبد والاواني المقدسة .

تقدم الاسقف نحو المذبح وتعال الانعام بموثراتها الحاضرة والمتوارثة فأوقظت في النفوس تلك الحالة الروحية العاطفية ، وبعثت من اعماق العواطف مثلاً نفسياً كان راقداً ، وتحذر الاحساس بالانعام فعدا الناس في سكرة روحية ، لا يسمعون ولا يفهمون ، بل يشعرون ، الى ان قرئت رسالة من مار بولس الرسول الى اهل سالونيكية فجاء فيها :

« فأنكم تعلمون كيف ينبغي ان تتشبهوا بنا لاننا لم نسلك بينكم بالشر ولم نأكل من احد منكم خبزاً مجاناً بل كنا نعمل بالكد والتعب ليلاً ونهاراً لئلا ننقل على احد منكم . ليس ذلك من اجل انه لا يحل لنا واكثنا لنعطيكم مثلاً في نفسنا كي تتشبهوا بنا . وحيث كنا عندكم ايضاً كنا نوصيكم بهذه ان كل من لا يحب ان يعمل لا يطعم .

وبعد قليل تلا القنائب الانجيل فجاء فيه :

في ذلك الزمان قال الرب يسوع :

« لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ولا

ثوبين ولا حذاء ولا عصا لان القاعل مستحق طعامه . . .

« واذا رجل يده يابسة فسأله الفرّيسيون قائلين : هل يحل ان يُشفى في السبت ؟
لكي يشكوه . فقال لهم : اي انسان مثكم يكون له خروف ان سقط في
حفرة في السبت لا يسكه ويرفعه ؟ والانسان كم هو افضل من الخروف ! فاذن
يحل فعل الخير في السبت . . . »

« لا يستطيع عبد ان يعبد ربين لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم
الواحد ويرذل الآخر : لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال . »

بعد الانجيل ساد الصمت في الكنيسة وادار النائب بوجهه الى الرعيّة وبدأ
موعظة تقليدية جاء فيها ما يأتي :

ايها الابناء لاعزاء !

جاء في الانجيل المقدس : « ما تحلوه على الارض يكن محلولاً في السماء وما
تربطوه على الارض يكن مربوطاً في السماء . »

« يظهر ايها الابناء الاعزاء ان اكثر المؤمنين يظنون ان هذه الآية المقدسة
تعني فقط ما يختص بالزواج والطلاق او تتناول فقط كل ماله علاقة بحياة الزوجين .
« ان حياة الزوجين ، بما فيها من اطوار متنوعة ومتناقضة احياناً ، هي ناحية
واحدة من النواحي العديدة التي تناولتها هذه الآية ، لان السلطة المعطاة من السيد
المسيح لحلفائه في آية كهذه تتسع وتعم حياة الانسان من الفها الى يائها ، من المهد
الى اللحد . »

« عندما يظهر الانسان الى النور من احشاء امه يأتي كاهن الله ، ذلك الذي
أعطي سلطة الحل والربط ، يأتي كاهن الله فيرفع يده فوق رأسه ليمحو الخطيئة
الاصليه المنتقلة اليه من ابينا الاول آدم ، ومن امنا الاولى حواء . من تلك الدقيقة
التي فيها يجر الكاهن الانسان من اثمه الوراثي الثقيل ، تبتدى سلطة الكنيسة
الكاثوليكية المقدسة على المسيحي المؤمن ، وهي ، اي السلطة ، ترافقه من تلك
الساعة التي ابصر فيها النور الى الساعة التي تعمض فيها عيناه على ظلام حالك . اذ
ذاك ؛ عند ساعة الموت الرهيب ، اما تتكاثف الظلمات وتتبعها النيران الابدية

المعذبة ، واما تشع انوار الملائكة في السماء فتستقبل النفس البارة وتحملها الى حضن ابراهيم لتنعم بالسعادة وتجنّي ثمار ايمانها وطاعتها للكنيسة المقدسة .
اذ ذاك ، في ساعة الموت ، إما ان تحظى النفس برأى خالقها براحة وطمأنينة ، واما تنتزعها الابالسة من احضان الاتير وتهوى بها الى جهنم ، حيث النار الابدية وحيث البكاء وصري الاسنان .

« ان اهم شيء تركه لنا السيد واوصانا في الوقت نفسه بالطاعة له والتقيّد بقوانينه هو الكنيسة المقدسة . فهي تعلم كيف تدير شؤوننا وتحفظنا من قوات الشر المتألبّة على العالم واذا اردنا ان نخلص وننجو من ابليس الشرير وقواته المجنّدة ضدنا ، علينا ان نكون طائعين للكنيسة ، وكل تعاليمها واوامرها المقدسة . »
« والكنيسة ، يا اخواني الاعزاء ، لها ممثلون عندنا ، هي تسنّيهم في كل اعمالها ، وسيدنا راعي الابريسيه هو احد الاحبار الذين ينفذون بيننا اوامر الكنيسة المقدسة ، يعني اوامر المسيح نفسه .

« يا بطرس انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي وابواب الجحيم لن تقوى عليها » هكذا قال السيد المسيح

يجب ان يكون ايمانكم قوياً بثبات الكنيسة ضد زعازع الهرطقة الذين حاولوا الانتقاص من سلطتها وسلطة رأسها خليفة المسيح .
ان البرهان الذي تعطونه على ايمانكم بهذه الكنيسة الراسخة كالجبال ، لا ينال منها الهرطقة الا ما تنال الرياح من الرواسي ، ان البرهان الوحيد على ذلك هو الخضوع المطلق لسلطتها الممثلة بسيدنا راعي الابريسية الساهر عليكم كما يسهر الراعي الصالح على خرافة .

وقد علم سيدنا مؤخراً ان ابليس بدأ يدس اصابعه الشريرة في هذه الرعية المباركة التي تحافظ منذ القديم على تقاليدها المقدسة وطاعتها المطلقة لرؤساء الطائفة الذين يقودون خطواتها الى الخير والصلاح منذ القرون القديمة .

قد علم سيدنا انه دب خلاف بين الرعية على امور تتعلق بخادماها ، لذلك اوفدني سيادته لاحقق بهذه المسألة واحل الخلاف القائم ، مستنيراً بأشاراته الغالية التي

زودني بها ساعة مجيئي .

فأنا اطلب منكم ايها الاخوان الاعزاء ان تتأكدوا اني ما جئت الا لاعد
المياه الى مجاريها ، ما جئت الا لأبعد اصابع ابليس الممتدة الى حياتكم الهادئة
المقدسة ، لذلك اطلب منكم ان تبعدوا عنكم تجارب الشيطان وان تدعوا لما
سأقرره مع اعيان قريبتكم فيما يختص بخادم رعتكم .
ياخوتي الاعزاء .

ثقوا ان راعيكم الصالح ، الساهر على خيركم وحياتكم الروحية لا يوفر جهداً
ولا مشقة على نفسه لتكونوا انتم دائماً في طمأنينة دنيوية وروحية وقد اوفدني
لاكون رسوله اليكم ولاصلح كل ما اختل من شؤونكم ، فكونوا انتم بدوركم
طائعين لاوامره متمسكين بأهداب الايمان المقدس لتساعدوني على القضاء على كل
خلاف مززع ان ينشب بينكم .

» بعد القيام بهذه الذبيحة المقدسة سأجتمع بأعيانكم في بيت وكيل
الكنيسة لنحل المشكلة البسيطة القاغة بينكم وبين كاهنكم وسأكون مستعداً
ان اسمع كل من يريد ان يبيدي رأياً بهذه المسألة .

واني اخيراً بالنيابة عن راعيكم امنحكم بركته طالباً من الله تعالى ان
يحفظكم من كل ما يمكن ان يعكر حياتكم والسلام لجميعكم . »
كان قداس النائب جهرياً رائعاً ، وتوافت الناس من القرى المجاورة كانهم
مدعون الى واحة روحية نادرة المثل .

بعد الموعظة عاد المنشدون الى الترتيل بانغام مؤثرة ، وعاد الحفل الى الفرق في
امواج من الروحانية النازلة من جو المذبح ، فكسوها روعة وجلالا مرافقة النائب
بصوته الجميل وحركاته الجهرية الجليلة .

قائمة منتصبة واقفة كهرج متحرك مكسو بالحرير والقصب المنق المزركش ،
ولحية طويلة يُخططها البياض ، واسارات مترنة متسقة ، وكلام منغم واضح اللفظ
مفهم ، كل ذلك كان يتسق في قداس النائب ليوحي الجلال والوقار والتقوى .
اما بونا الياس فكان واقفاً عن يمين رئيسه لابساً قميصه الابيض وبطوشيمه

العادي ، يجمع يديه غالباً بالقبضتين ، ويرافق القداس بتمتمات خافتة ، منتظراً في الوقت نفسه لمرأ من سيده ليقدّم له او ليأخذ منه آتية من اواني المذبح ، كانه عبد حقير في حضرة امير جبار !

في هذا الجو المغمم بالبخور والتضرعات ، بالجلال والوقار ، بالانعام والعواطف ، بحرية المسيح وعبودية الانسان ، بمساواة الناصري وطبقات البشر ، بمحبة ابن الانسان المثالية المجردة من كل غاية خاصة ونزعات الناس المقيدة بالرغبات الوضيعة ، في هذا الجو الجامع اصح صورة ترتسم فيها متناقضات الانسانية ، اقيمت حفلة القداس لذكرى ذلك الذي جاء لينقذ الانسان من طقوس اليهود الجامدة ، ذاك الذي فجر في قاب الانسان ينابيع الرحمة والمحبة والمساواة والاخوة . ومنذ ذلك الحين يحاول الانسان نفسه اغاضة تلك الينابيع ليعود الى طقوسه الوثنية واليهودية الجامدة .

ولما انتهى القداس وصحا الجو حيث كانت تتيه عواطف الناس المنبهة بالاشكال والصور ، لما اسدل الستار على كل ما كان يجري على المذبح ، لم يبق في ذهن بعض الافراد ، المتنورين بالفطرة ، الا صدى لآيات الانجيل المقدس . فالكلمات المغذاة بقوة روحية لا تقنى ولا قشيش ، نفذت الى قلوب المؤمنين بنشاطها الروحي ، وجددت بذر المثل العليا التي صلب ابن الانسان من اجلها .

وانخل القداس فخرج الناس افواجا ، وقف البعض منهم في باحة الكنيسة يستعرض الخارجين ، ومضى البعض في طرقات القرية المتعددة . وكنت ترى الكل : نساء ورجالا واولاداً ، في ثياب العيد ، عيد قدوم النائب ، وكنت تسمع هنا ضحكة عالية ، وهناك كلمة اعجاب بالنائب وقداسه ، وهناك نكتة تهكم على القسيس وبساطته ، بينما كان الشبان يتبارون في قسرع الجرس معلّنين انتهاء القداس الاسقفي . ولم تمض دقائق حتى عادت الكنيسة الى سكوتها على كهف الوادي ، وأوى كل الى بيته يتحدث عما رأى ، وينتظر نتيجة زيارة النائب .

VII

اليوم يوم حافل عند ام طنوس واقاربها وجيرانها : النائب 'يتعدى عندها . لم تسمع القداس - لا هي ولا اهل بيتها . فالواجبات واستعدادات الغداء منعتهم . هم في حالة قاهرة . أليس وجود نائب المطران ضيفاً قوة قاهرة ؟

قبل الفجر بدى . بذبح الديوك وملشها في الماء الساخن . وعند الصباح توزعت الاعمال بغير نظام ، على كل من قطوع ليشغل . العجائز تنظف الديوك ، والفتيات تنقي الهرغل والرز ، وذوات السواعد القوية تدق الكبة ، وهناك من يطبق المحاشي ويرصفها رصفاً فنياً في القدور الكبيرة . اما التعريقة والمزه فان الصبايا والشبان يشتركون في تهيتها وترتيبها ، ومشهور ان النائب يجب « الدمعه » لذلك وجب ان تكون طاولة التعريقة . مشكلة منوعة ، تشهي الاكل والشرب معاً .

بين الفينة والفينة كانت تمر ام طنوس بدورة عامة على « الورشة » العاملة منذ الصباح لغداء النائب ، وغالباً ما كانت تقول مداعبة : « يجب ان تبيضوا وجهي اليوم » والكل يجيبون : « كلنا بامرك يا ام طنوس » .

وبينما كان الجميع منهمكين بشغلهم اذا بولد صغير يركض ويقول : « جاءوا ! جاءوا » واطات ام طنوس من باب القبو فرأت موكباً يسير الهويناً نحو بيتها ، يتقدمه سيادة الخور اسقف كانه قائد يتقدم جيشاً غير منظم . واستنشقت ام طنوس الهواء ملء رئتيها ، شاحخة برأسها ، كأن خمرة الوجاهة رنحت هامتها واعطافها ، رغم انها لم تكن راضية عن هذه الزيارة

وصل الموكب واستقر صاحب السيادة في صدر « المربع » يحيط به شيخ القرية وبو طنوس وبونا الياس ، وقد توزع باقي الحاضرين على كل المقاعد وبقي نفر كثير على الابواب وخارج البيت ، يطلون الواحد بعد الآخر ليشتمعوا بنظرة الى صاحب

السيادة . اما سيادته فكان مستوياً في المقعد الكبير ، تترامى لمعات ارجوانية من حركاته ويشع خاتمه المرصع بجوهره كريمة ؛ تتدلى على صدره سلسلة ذهبية ، تعطي اكثرها حية بيضاء طويلة تريد الوقار وقاراً ، ويظهر بعدها ، فوق الزنار البنفسجي صليب مرصع ايضاً بجواهر كريمة متنوعة .

اما وجهه فطويل ، تعلوه حبهة عريضة ، وتنطلق منه نظرات حادة فيها السيادة وفيها القوة وفيها اشياء مبهمة .

كان بونا الياس جالساً الى يسار الخور اسقف ، تتجاور يدهما على المسند فتلفتان الانظار بالتباين الظاهر بينهما . فالنائب يلقي يده الناعمة ، الناعجة ، يتلألاً فيها كحجر كريم براق ، بينما القسيس يجاورها بيده الخشنة المتصلبة ، تنفر منها الاعصاب القوية ، وتلازمها ، ولو بعد الغسيل تماماً ، مسحة من التراب غدت جزءاً حياً منها ، لا يؤثر عليها الصابون والماء .

كان بونا الياس حاسراً الرأس ، صامتاً ولكن كل ما في وجهه العظمي ، وعينه الفائرتين ، ونظراته الوديعه من آن الى آخر ، وكل ما في يديه من آثار ناطقة في سكوتها وسذاجتها ، كل ذلك كان يتكلم بفصاحة نادرة لمن يعي ويفهم .

ولكن الجماهير لا تؤخذ الا بالمناظر الخلابه والمشاهد المغرية ، فان النائب كان يجذب الجميع اليه . مرت العجاقر والصبايا يقبلن يده ، ويتباركن بالحاتم المقدس ومر الرجال كلهم يقبلون اليد والحاتم ، يطوون ركبهم قليلاً ، علامة الخضوع التام ولا يرفعون انظارهم ، كانهم امام عاهل ياباني قديم .

قالت احدي العجاقر لام طنوس بعد ان اخذت بركة النائب : « هذا مطران ! »

وقالت اخرى : « بيكفيك هالقداس الخلو ! »

وقالت ثالثة : « شو هالبشتي ، بالحقيقة شي . بيخشع ! »

وقالت رابعة : « الله كملمها معه ، هالخلقه الخلوى ! وهاللبس الجميل ! هيك يكونوا الخوارنه ! » فضحكت جارة لها وقالت : « هاذا مش خوري يا شاطره ، هاذا مطران ، طبعاً المطران مش القسيس ! »

كانت انظار الجميع عالقة بالنائب الضيف ، ويجاره القسيس ، الممثل في نظر

الناس ، الصورة المعاكسة لهذا الجلال الكهنوتي المتجلي في نائب المطران ، ولم من عجوز قالت في سرها عند ما رأت الكاهنين المتجاورين : « اهذا كاهن وهذا كاهن ؟؟ !! ... »

لم يطل الوقت حتى كانت السفرة تجهزت فأتت ام طنوس ، والكبرياء وألجوبر يغمران كل حر كاتها ، تقبل يد النائب وتوهل بتشريفه ثم تدعوه ليجلس ويبارك المائدة !

— دعوتك الآن في محلها ، يا ام طنوس ، لاننا في الحقيقة جمعنا ، تفضوا .
وجالس صاحب السيادة ، مترئساً الطاولة ودعا الآخرين الى الجلوس ، ثم طلب بصورة خاصة ان يكون بونا الياس قبالة وقريباً منه في الوقت نفسه .
كل من لم يكن مدعواً للجلوس الى الطاولة الكبيرة خرج من المربع اما لياكل في محل آخر ، او ليشي خارجاً الى ان يكون انتهى الغذاء او لينصرف الى بيته .

ولم يبق في المربع الا من اراد الاشتراك في المناقشة التي ستدور بين النائب واهل القرية من جهة وبونا الياس من جهة ثانية .
بدأ صاحب السيادة بالاكل والكلام معاً .
— لندخل الان في الحديث الذي جئنا من اجله .
— تفضل ، سيدنا ، قال البعض .

وقبل ان يبدأ النائب بالكلام ، اوما احدثهم من الخارج الى بو طنوس ، فاستأذن وذهب ، ثم عاد بعد هنية وهمس في اذن النائب : « هذه حسنة قداسين عن روح والدي العاطي » ثم سلمه ليرة عثمانية ذهباً .
وقبل ان يعود الى محله ناداه احدثهم ايضاً فطال غيابه نحو خمس دقائق ، ثم عاد حاملاً لائحة صغيرة قدمها الى الخوراسقف وناولته خمس ليرات عثمانية وقال :
وهذه ايضاً حسنت قداديس .

— لا لزوم ان يكلف الناس نفوسهم ، لا لزوم ! « قال سيادته وهو يضع الليرات في جيبيه .

— قفّض اجلس ، يا بوطنوس ، يجب ان نصل الى حديثنا الرئيسي .

» يا اولادي الاعزاء .

من مدة تصل الى سيدنا راعي الابرشية ، شكواوي على بونا الياس مؤداها ان
حضرته لا يقوم بواجباته ولياقاته كخادم رعية حسب المألوف ! وكان سيادته يؤجل
التحقيق بهذه المسألة الى وقت زيارته الرعية ، ولكن يظهر ان البعض الحوا في
الاوتة الاخيرة ليتدخل سيادته . فارسلني اليوم للتحقيق . فارجو الان ممن
يهمهم هذا الامر ان يتكلموا بصراحة »

— سيدنا ، اذا امرتم ، نحن نكلف حضرة شيخ القرية ان يشرح المسألة ،
قال احدهم وبقي الجميع ساكتين تأييداً لكلامه .

— بالاختصار نقول لكم ، يا سيدنا ، قال الشيخ ، ان الحالة التي يعيش فيها
بونا الياس لا تليق بنا . وقد نهته مراراً فلم يهتم لتبنيهي . سيادكم تعلمون ان
قريتنا هي منظورة في المنطقة ، لذلك تكثر الواجبات واللياقات علينا ، وبونا الياس
لا تهتم الا واجباته الدينية ، اما الواجبات الدنيوية فيهملها تماماً . وكلما هو معلوم
لديكم يا سيدنا ، الناس لا يعيشون فقط بالدينيات ، بل بالدينيات ايضا . بونا
الياس شغلته فقط الكنيسة والارض ولا يزور احداً الا في حالة مرض او موت ولا
يرافقنا في اية نعوة ، فنذهب نحن وحدنا كأن لا كاهن لقريتنا ! هذه هي كل
المسألة ، وهي بسيطة جداً . اذا كان لا يريد ان يغير معنا سلوكه نشكره على
خدماته السابقة ونأتي بكاهن آخر .

— لقد فهمت المسألة ، قال الخوراسقف وهو يرفع كأس النبيذ الزكريتي المعتق
بعد ان كرع كؤوسا عديدة من العرق المثلث
» يا بونا الياس ! قال النائب

» انت ابن عليلة لم ينقطع فيها الكهنوت مرة حسب ما عرفت عن سجل
الابرشية ، فعمك كاهن ، وجدك كاهن وابو جدك ايضا . الى ما هنالك من سلسلة
من الكهنة تمتد الى ثلاثماية سنة وقد كنتم دائماً مرشدي القرية وخدامها الروحانيين
فهل يجوز الان ان تكون سبب نقض هذا التقليد المبارك الموجود في عائلتك وقريتك .

« الكاهن يا ابني هو اب القرية وامها ، هو معزيها ومشارك افراحها ، هو الساهر على مرضاها والمزوج عرساتها ، فهل يجوز ان تقوم انت بقسم من واجباتك وتهمل الآخر ؟

« اعمل لهذه الرعية ما هي تريد وانت تكون الرجحان والمسرور ! لا تحالف رأي الشعب لان رأي الشعب من الله .

قالوا لك زرنا غالباً ، فلهذا لا تزورهم ؟ قالوا لك اسهر معنا ، لماذا لاتساهرهم ؟ قالوا لك رافقنا في مآمتنا وافرحنا ، لماذا لا تتمم رغائبهم ، الكاهن هو ملك الرعية هو ابوها وخادمها في الوقت نفسه ، الم يكن هكذا عمك وجدك ؟ والكاهن يا ابني ، يجب ان يتنزه عن الدنيويات ، ويترك الارزاق لاصحابها ، وادوات الفلاحة لرجالها الان مقامه ارفع من هذا العمل وواجبه الديني ارفع من هذا الواجب الدنيوي . ما رأيك بذلك .

كان الناس يطلون من بابي « المربع » ويشربون باعناقهم مصغين الى كلام النائب كأنه وحي يتزل عليهم من السماء .

- ألا ترى هذا الرأس الجميل ، قال احد الواقفين خارجاً والمصغين ، كأن الملائكة ترفرف فوقه وتكلمه ، انظروا المسكين بونا الياس كيف اصفر وجهه .
- « هذا كلام معقول ، قال آخر ، ايش عنده حتى يقول بونا الياس الان ؟ »
- طولوا بالكم باجماعه حتى نسمع كلام بونا الياس ، لماذا تتسرعون هكذا ؟
قال ثالث .

وبونا الياس قد اصفر لونه حقيقة ، وانسدل على وجهه ، فوق الاصفرار ، غشاء من كآبة الناسك المشتاقين الى مواجهة ربهم ، لانهم ملوا الحياة وترهاتها ، وكان قواه الروحية الصامتة ، الزاخرة ، تأبست كما على لسانه لتفك عقدته ، لتنطقه في هذه الدقيقة الحرجة ، فتعطي البساطة امثلة للتفلسف ، والتقوى امثلة للمسايرة النفعية ، والصرامة الصحيحة امثلة لمن يخاف الناس ومجابهة رغباتهم الصبيانية ، الشاذة .
- انا اشكرك ، يا سيدي على ما قلته عن عيلتنا . واحب في الوقت نفسه ان آخذ بمشورتك ونصائحك الابوية ، وان اكون طائعا لسيدينا راعي الجميع .

« ولكن انت تعلم ياسيدنا ، ان للانسان ضميراً ، وهذا الضمير هو الذي يقود خطواته في حياته ، ان كان علمانياً ، ام كاهناً .

« وانا رجل لي ضمير ايضاً ، وضميري ضيق ، وقاس ، لا يستطيع ان يخالف اوامرہ وإذا خالفتها احس اني زحمت عن الطريق القويم .

« الكاهن ياسيدنا ، صحيح انه اب وام للرعية ، ولكنه ليس «مسيحة طلق» للرعية ، الكاهن هو الاب الروحي والام الروحية للرعية !

« انا مستعد ان اعمل لهذه الرعية ما تريد من رغباتها الروحية ، انا حاضر لازور مرضاها ، لاسهر على من دنت ساعتهم لارشاد الخطاة الى التوبة ، والصالين الى الطريق الحق ، اما ان اجاري كل واحد على رغباته ، فذلك لا ينطبق على واجبي كراعي لهذا القطيع الصغير . فالراعي لا تقوده خرافه بل هو يقودها .

لقد جاء ، وقت مرضي منذ سنوات ، من جاروها على كل رغباتها فتوصلوا حتى الرقص في الاعراس ، وحتى السهرات الطويلة هنا وهناك ، وتحزبوا اغانيات ، لا مجال لذكرها الان ، فقسّموا ، وزرعوا الشقاق بين ابناء العائلة الواحدة ، وقد رأت القرية اخيراً ما كانت النتيجة .

« واهم ما يلومونني عليه هو هذا الشوب البسيط ، العتيق ، هو هاتان اليدين الحشتتان من العمل الدائم ، هو هذا الانقطاع الى الله والى الشغل في الارض !

« اما انا فارى ما يلومونني عليه قوة تساعدني على خدمتهم الروحية ، وطريقة تضعني دائماً امام خالقي وجهاً لوجه ، طريقة تقربني من الله ولا تبعدني عنهم ، بل تبقيني بين ايديهم .

« فانا اخدمهم في كنيستهم ، واشاركهم في مصائبهم ونكباتهم ، واعيش معهم في حقوقهم : انقي كروهم ، كما انقي ارواحهم ، واغرس الزيتون والكرم والتين في ارضهم ، كما اسعى لاغرس الفضائل في نفوسهم ، واطعم اشجارهم بالاصل الجيد كما اطعم نفوسهم باعمال البر والتقوى .

هكذا عاش عمي وعاش جدي واعيش انا

« هم يقولون ان الايام تغيرت ، وان الكاهن اليوم يجب ان يكون غير كاهن الامس .

اما انا فضميري يقول لي ان هذه الحياة هي درع الكاهن الواقعي في حياة القرية .
فاذا ترك الحقل وقضى ساعات فراغه في التنقل من بيت الى بيت ، لابد ان ترل به
القدم ويسقط .

« خير لي ان ارفع القربان المقدس بيد يغشيها التراب الطاهر ، من ان ارفعه بيد
ترجفها رجاسة قلبي ! »

« خير لي ان اشدّ حذاء برته الحقول والكروم من ان امشي بجذاء داس البيوت التي
تحلف الشكوك ، خير لي ان اقضي ساعات فراغي في سياسة الاشجار ، فاعلم النشاط ،
من ان اقضيها بالراحة التي تحلف الهواجس والافكار الغريبة ! »

- آآ كثير مليح يابونا الياس ! قال النائب بعد ان اخذ حجة من الحجر ، انا
جئت اذن لاسمع موعظتك ، لا لاعطيك ارشادات تقربك من رعيتك اكثر فأكثر
والكهنة اذن ، ما عادوا مقيدين بتعليمات رؤسائهم بل ضميرهم هو الحكم بينهم
وبين الرعية ! هذا بليغ جداً . الا تذكر يابونا الياس ان عمك وجدك وسائر الكهنة
في ذاك الزمان ، كانوا يسلكون ذلك السلوك بناء على اوامر راعي الابرشية ؟
ان الناس في ذاك الوقت كانوا بحاجة الى من يعلمهم النشاط ، وعمل اسلافك كان لتلك
الغاية ، اما اليوم فالناس يستغنون عن ذلك ، الناس اليوم يريدونك ان تكون
لابساً لبساً لائقاً ، ان تكون مجارياً العصر الحاضر ، ان تعيش عيشة مرفهة تتلادم مع
مقام الكهنة الراقين ، المتعلمين ، وانت ترفض ؟

« تقول انك تريد ان تعطيهم مثلاً صالحاً في شغل الارض ، وغرس الاشجار ،
الا يعطى المثل الصالح الا بهذه الطريقة ؟ »

- حاشا ياسيدنا ، ان اقصد وعظك ، كما قلت ، فانا كاهن بسيط ، ضعيف
اطلب المعونة الروحية من الجميع . ولكن انت سألتني رأيي وانا اعطيته بكل
بساطة ، وحسب وجداني ، فأرجوك ان تأخذه كما اقصد به .

« حاشا ان ادعي ياسيدنا ، اني اشتغل في الارض فقط لاعلم الناس ولاعطيهم
مثلاً صالحاً ، فانا فقير الى قبس الصلاح افتش عنه في كل نفس من نفوس هؤلاء
الفلاحين ، اخواني وابناء قريتي انما احب هذه الارض ، ياسيدنا ، احب ان

اغرس في تربتها ساعات فراغي وقوى جسدي ، فتنبت اشجاراً جميلة مشمرة ، تنفع اهلي وتمجد الخالق معي ، احب ان اكرس الارض عزم جسدي كما كرسك لله وهذه الرعية قوى روحي ، فيتعظم ربي بشغل يدي كما يتعظم بترتيل لساني وقلبي ! «وانا لا احس اني اقدر ان اعيش بدون عمل ، الله لم يعطني النعمة والمقدرة لاكون مبشراً ، ولم يهبني ارادتك المقدسة لاهيا دائماً بين الناس قوياً على كل تجربة انا اخاف التجارب ، اخاف البطالة ، اخاف حتى الراحة ، وانا اقر بعجزتي . وقد رباني المرحوم عمي والمرحوم جدي على حب ثلاثة اشياء : الله ، وهذه الرعية ، والارض ، واحس اني مرتبط بايائي بالله ، وبعواظفي لابناء هذه القرية الاحباء ، ويجبي لهذه الارض التي تجذب الى اعماقها كل فكر سبي . كما تجذب الحربة الممغنطة الصاعقة ، والناس ياسيدنا يبتعدون من جيل الى جيل عن الارض ، وامسوا يخرجون مسن الشغل فيها ! فهل من ضرر اذا بقيت انا قائماً بواجباتي حسبما يرتاح ضميري ، خصوصاً وانا اجتاز سن الكهولة ، وداخلك في الشيخوخة القصيرة التي تقود هذه النفس الى خالقها لتقبل الدينونة العسيرة انا لا اطاب شيئاً من الرعية . احب ان اخدمها مجاناً ولكن على الطريقة التي عشت عليها ، فان كانت تريد كاهناً يجاري العصر وضرورياته الجديدة ، فليكن لها خادم آخر وانا اكون خادماً له ولها . »

عندما توقف بونا الياس عن الكلام ، منتظراً بوداعة القديسين جواب النائب وحكمه ، هز الشيخ رأسه ، وقطب حاجبيه ، ثم مال نحو النائب وهمس في اذنه : « عبناً ياسيدنا ، هو كلبان على الشغل ، لا يمكن اصلاحه ، هو يعبد الارض ، وهل يعبد الإنسان ربين ؟ »

وكانت الحجر اخذت تلعب برأس الخوراسقف ، ولاحظ ان السامعين تأثروا بكلام القسيس الساذج وبدت علائم الاقتناع على وجوههم ، فاراد ان ينفذ كلامه وارشاداته ، ولكن بقوة الحجر ، وان يستعيد . ما بدأ يضعف من الاعجاب بشخصيته !

— لقد قال سيدنا المسيح يا بونا الياس « اترك كل شيء واتبعني » ونحن اما

ان نكون كهنة واما ان لا نكون . اما ان يكون لنا رؤساء يأمرؤننا واما ان نكون علمانيين احراراً ! أما ان نكون الاثنين معاً فذلك عيسى شذوذاً عن الدين ، وتوداً على اوامر الرؤساء . سيدنا امرني ان اطلب اليك ترك شغل الارض لاهله لتكرس كل وقتك للرعية ، واذا لم تكن مستعداً للتقيد بهذه التعليمات ، يمكنك ان تعود الى الدير حيث كنت ! لا تقدر الرعية ان تحترم كاهناً تكون المنجل دائماً معلقة بزناره ، والحبل ملفوفاً على وسطه ، والمحول على كتفه . تريد كاهناً تقدر ان ترفع رأسها به . وانت جئت الى القوية لتخدم الرعية ، لا لتشتغل ارزاق اخوتك ! والمسألة لا تقبل جدلاً ، والله لا يقبل شريكاً معه ! فأما هو واما الارض وانت عليك ان تنقي الان بين الرعية والدير ! »

— لا يأس ، قال بونا الياس بانكسار واذعان ، انا انزل عند ارادة الرعية وارادتكم واعدتكم الى الدير !

فسكت الجميع كان اصاب المتأمرين فشل تام . وهز بوطنوس رأسه وهو يقول في سره : « فليذهب الى الدير طالما هو لا يقدر ان يجاري الرعية حسب اهوائها وطالما الناس امسوا يقدمون القشور على الجوهر .

— نعم انا ذاهب الى الدير اي متى تريدون ، اكمل بونا الياس . اذا كان حب الارض التي شربت من عرق ابي واجدادى امسى خطيئة ، اذا كان الابتعاد عن التجارب صار جرعة ، اذا كان الهرب من الشكوك ومن يسبب الشكوك يعد سيئة لا تقترف ، فانا اقر بضعفي وعجزى واعدتكم الى الدير . انا لم ادع اني قوي مثل ذلك الذي قال سيدنا المسيح : « اترك كل شيء واتبعني » لقد علم ربنا انه يقوى على تنفيذ اوامره فأمره ، لماذا لم يجد الاثني عشر رسولا بين الملايين ، ذلك لان الضعفاء كثيرون والاقوياء قليلون في العالم ، ان الله لا يطلب مني اكثر من طاقتي وهذه هي طاقتي اقدمها بدوافع ضميري .

« اطلبون من راهب قارب الستين من عمره ، ان يتقمص في شخص كاهن شاب يهجه ان يساير رغباتكم ، لا يستوحى اعماله من ضميره ومن انجيله ؟ كان عليكم اذن ان تستبقوا اولئك الذين كانوا يخدمونكم خلال غيابي ، كان عليكم

ان تطلبوا الى ترك الرعية ، دون ان ترعجوا سيادة راعيها ونائبه ، وتعملوا هذه الضجة حول ناسك حقير مثلي ! الله يسامحكم ويسامحي - يا اولادي - دبروا الآن كاهناً يخدمكم فاننا لا اريد ان اكون سبب اختلاف بينكم »

بقي الجميع ساكتين الا النائب ، فرفع رأسه ، واعطى هيئته استحقاقها وقال :
« قد انتهت المشكلة اذن ، ونحن لا يمكننا ان نأمر بونا الياس باكثر من ذلك لانه راهب ، متى اراد العودة الى ديريه ، يصبح خارجاً عن نطاق سلطة سيدنا »
- ماذا تقولون اذن ؟ قال بوطنوس

وكان بونا الياس ، ساكتاً هادئاً ، ينتظر قرارهم ، كما انتظر المسيح حكم بيلاطوس والكنهة !

فقال احد الحاضرين :

- اتسمح لي بكلمة خاصة ، يا بوطنوس ؟

وخرجاً معاً مستأذنين من صاحب السيادة ، ولما صارا خارجاً احاط بهم من كانوا ينتظرون خارج المربع . فاكمل الشخص نفسه قائلاً : « والله يا عمي بوطنوس ان عملنا لا يجوز . وقد اقتنعت بكلام بونا الياس اكثر مما اقنعتي كلام النائب . ذاك كلام يخرج من اعماق القلب والضمير وهذا كلام من يريد ان يسايرنا حتى في خطانا . كيف يقول لبونا الياس : « اترك كل شيء واتبعني » وله البساقين العديدة في السواحل ، وقد اشترى هذه البساقين مما يأخذه ثمناً لصلواته . وهذا الكاهن المسكين يقوم بكل مراسيمنا ويشغل لوجه الله . اتريد ان نجرده من كل عواطفه نحو اخوته .

« ارى يا بوطنوس ، ان نؤجل المسألة ونصرف النائب ، قائلين له اننا نعطيهِ الجواب بعدئذ »

- هذا هو الصواب ، قال اربعة اشخاص في وقت واحد ، ثم اكمل احدهم
« والله عيب علينا ان نكافي القديس بهذه المعاملة . زده الى ديريه مكسوفاً بعد ان خدمنا مجاناً ، يرفض حتى تقديماتنا له في الاعياد . »

وظهرت على وجوه الجميع علائم التأييد لهذا الكلام فشعر بوطنوس ان الرأي

العام، بدأ عيّل الى القسيس، فصمم حالاً ان ينفذ الآراء الاخيرة، وعاد الى المربع
فسمع النائب يقول : « اذن يمكنني ان اؤكد لسيدنا انك ستترك الرعية ،
يا بونا الياس ؟ »

— نعم ، يا سيدنا ، وانا اعتبر نفسي منذ الان ، اذا شئتم ، غير مقيد بالرعية ،
بل بقوانين رهنيتي ، وعسى ان يكون ذلك خيراً للرعية . »
— عفواً ، يا سيدنا ، قال بوطنوس ، ارى ان الآراء متضاربة ولناخذ وقتنا
قليلاً في الموضوع ، ونعطيك الجواب في هذين اليومين . ليمتق الان بونا الياس الى
ان يكون قرّ رأينا النهائي . ثم همس في اذن النائب : « الرعية تخاف الكهنة
الغرباء والشبان . لانها تلوعت في الماضي من سلوكهم وسوء آدابهم ، اتركنا
ننوّ بالامر اكثر . »

— ماذا اقول اذن لسيدنا . انتم تعلمون ان اشغاله كثيرة واشغالي ايضاً ولا
يمكننا ان نكرس اياماً عديدة لحل مسألة بسيطة كهذه .
فأطل اذ ذاك شخص من الباب وقال :

— يا سيدنا ، ان اجداد بونا الياس يخدمون هذه الرعية باهلها وارزاقها ، بافراحها
واتراحها منذ مئات السنين ، أنتنازل بهذه السهولة عن كرس السنين في خدمة
كنيستنا وفي تقديم كل انواع المساعدات لنا ؟ هذا لن يكون ! نحن نشكرك على
زيارتك ، وقد دفعنا لك تعبك حسنات قدايس واذا كان ذلك لم يكف زداناه
ايضاً ، ولكن اتركنا نفكر في الامر قبل ان نقرر هذا القرار الخزي بحقنا .

فاحتد النائب اذ ذاك وقال بغضب :

— اذن لم يعد لسيدنا ولا لممثلته ادنى سلطة على الرعية فهي تقرر ما تريد ؟
أمن اجل هذا جئت انا الى هنا يا بوطنوس ؟ ! اني لاحظت في كلام بونا الياس
وفي كلام بعضكم عدم احترام لسيدنا ، بل تمرداً على سلطته ! كنتم تقولون
ان بونا الياس عاص في القرية ، لا يترك الرعية ، بل يدعي ان له حقوقاً
مكتسبة على مذبح كنيستكم والان عندما رضي القسيس بمغادرة القرية رفضتم
القبول ، هل يكون سيدنا مضحكة في نظر البعض ، اي حساب يمكن ان اعطيه

عن زيارتي ؟ فتقدم آنذاك رجل الى الباب وقال بصوت عال :

— نحن زيد ان يبقى بونا الياس في القرية حتى ولو كان عندنا كاهن آخر .

بونا الياس هو ابونا ، هو جزء من حياة قريتنا لا يمكن ان نتنازل عنه .

« ان القرية تصبح يتيمة بدون ارشاداته الابوية ! ان ارضنا تبور بدون بركة

يديه ! ان فضله يغمرنا جميعاً ، ومن المستحيل ان نتركه يغادرنا »

ثم مشى نحو الطريق لينصرف وهو يتم بصوت غال ليرسم النائب :

« والله شغله ! تريدون ان ترجعوه الى الدير رغم ارادتنا . تريدون ان تذهب

اتعاب يديه للراهبان ! نحن بحاجة اليه اكثر من الجميع . لن يترك القرية ولو

طبقت السما على الارض ! »

— الاوافق ، يا سيدنا ، قال بوطنوس ، بصوت هادي . ان تترك المسألة الآن

لا شك ان ذهاب بونا الياس من القرية يحدث فراغاً في مجرى حياتها : فهو الكاهن

وهو الكرماء وهو الزراع وهو محدد الارزاق ، وهو مطعم الاشجار ، هو يعرف

اعمارهم وتاريخهم واحداً واحداً ، هو يقص عليهم حكايات القرية القديمة عندما

يزورونه ، وهو يعصر زيتهم ويعقد دبسهم ويطحين ثيابهم ويعامل خورهم ، هو

بالاختصار جزء من حياة كل فرد منهم . واذا كانوا يريدون فانا اكون مسروراً

لانه نسيبي قبل ان يكون كاهنهم . ثم همس في اذنه : « لا تكون الا مسروراً ،

يا سيدنا ، طمن بالك ، تعبتك عندي انا لم ارض بعد بما اعطيتك . »

— نحن يهمنا على كل حال ، قال النائب عندئذ . « ان تكونوا متفقين ،

وطالما انتم راضين الآن فليكن ما تريدون ، وعندما تحتاجون الي انا لا اتوانى عن

المجيء اليكم .

« وانت يا بونا الياس ، من الموافق ان تزور سيدنا وتقبل يديه ، وتطلب

بركته وهو بدون شك يزودك بنصائحه وبالبركة الرسولية .

— بدون شك ، قال بوطنوس ، سأأخذه معي المرة القادمة ليزور سيدنا .

— انا دائماً بين ايديكم وطوع اوامركم يا سيدنا . قال القسيس .

— اما الآن فيجب ان انصرف ، يا بوطنوس لان علي اشغالا كثيرة في الكرسي

عامر ! عامر ! يا بو طنوس .

ووقف صاحب السيادة مشيراً بالانصراف فاخذ الحاضرون يتقدمون لتقبيل يده وخاتمه وهزوات النساء من الحارة المجاورة يأخذن الحركة . في هذا الوقت تقدم بو طنوس من الشماس ودس في جيبيته مجيدين ، فقال له الشماس : ان شاء الله دائماً مقصد ، يا بو طنوس !

ومشى الموكب يرافقه النائب الى الطريق العامة حيث كانت تنتظره العربة ، فناول بو طنوس عربيجي النائب مجيدياً ، ونادى الى البيت قائلاً : « هاتوا جرة النبيذ حالا » فجيء بالجرة ووضعت قرب العربيجي . ثم تقدم بو طنوس اخيراً يودع النائب الجالس في العربة .

— لا تؤاخذنا ، يا سيدنا ، قصرنا بالواجب ، عذبناكم ، سنتشرف بزيارتكم قريباً .

— ما في عذاب ، يا بو طنوس ، خاطركم ! امشي يا حنا !

VIII

كان بيت بو جريس يغص باهل القرية في تلك الليلة . فالاقارب والمؤيدون اتوا يهنئون القسيس بانتصاره في ذلك اليوم ، فرحين ببقائه بينهم .
— الغريب عند الناس يا عمي القسيس ، قال حنا ابن اخ القسيس ، انه اذا كثر وعم خطا في ظروف القاهرة ، عبد الناس ذلك الشواذ قاعدة ومشوا عليها وحاربوا القاعدة الصحيحة . كأن المرض اذا قفش بكثرة يصبح حالة صحية يجب تشجيعها ومحاربة الصحة ؟ ! . . .

« لو علم الناس من هم الذين كانوا اساس الحياة في هذه الجبال لما انتقدوك وحاولوا حملك على الكسل ومسايرة اذواقهم المريضة . ان الاديار هي الآثار الاولى للحياة في هذا الجبل . ولولا هذا الدير القديم لما كانت وجدت قريتنا على هذه

« ولكن الايام تبدلت وتبدلت معها كل مقاييسنا للحياة الحقيقية . فالكاهن الذي اتقن اللاتيني والفرنسي هو الكاهن الصالح وهو المدير الحكيم في هذه الايام . مع اننا نعلم ان الذين اسسوا هذه الطائفة العظيمة ونظموا ووضعوا دستورها ، وحفظوها طوال اجيال الانحطاط الطويلة لم يكونوا يحسنون الاقتهم السريانية ، وكانون بدون شك ، يقومون باعمالهم العقلية العظيمة مع ممارستهم شغلهم اليومي في الارض . الارض كانت لتمارين اجسادهم على محاربة الكسل ، والمبايدي . السامية كانت لتمارين نفوسهم على ممارسة الفضائل »

— هذا صحيح يا ولدي ، قال بونا الياس ، وعسى ان تعود تلك الايام المباركة .
الله كريم ! سوف تعود .

« في تلك الايام ، اكمل حنا ، لم تكن الفضائل تكمن في لغة من اللغات الاجنبية ، ولا في زي من الازياء الحديثة بل كانت تظهر من معادن نفوسنا ، ومن اعمال البر والصالح التي كان يقوم بها اجدادنا .

« كيف يجوز ان نعدّ اتقان لغة اجنبية مقدرة فكرية وتفرقاً عقلياً ، وامتيازاً للكهننة يوصلهم الى درجات كهنوتية عالية .

« وكيف يجوز ان نعتبر الكسل والتواني والتنعم براً وتقوى وصلاً ؟
والكني بصراحة اقول : ان ما شجع الاكليروس الجديد على التورط في هذا النهج الشاذ هو سكوت الشعب عن اعمال الاكليريكيين . فالناس يعتقدون ان الاكليريكي هو مقدس لا يجوز انتقاده والبحث في شؤونه . وهو قد اكتسب هذه العقلية ، طول الزمن ، وامسى يؤمن بقديسيته ، لذلك هو يغضب ويشور ويتوعد ويحرم كل علماني ينتقده ويبين هفواته . وهم ، بين بعضهم ، يستترون عن انفسهم ولا يفضحون اخطاءهم ، وهكذا تتكرر الهفوات والخطيئات حتى تسي ملكات في نفوسهم ! »

— ما هذا التساهل مع حنا يا سلفي ! هذا ولد كافر قد ضربه ما تعلمه في المدرسة ! ياليتنا لم نرسله تلك السنة الملعونة ! لا تسمعي هذه الالهجة يا صبي ،

انسكت ! » قالت ام جريس بحدة وغضب .

— لماذا هذا الغضب يا ام جريس ، قال بوطنوس ، ان ما يقوله هنا هو صحيح ياليتكم ابقيتموه في المدرسة سنة اخرى لكان قنور اكثر ، نحن لا نريد ان ننتقد رؤساءنا الآن ، ولكن قول هنا هو عين الصواب .

— الشبان لا يُسمعون يا بوطنوس ، قال بوسليم ، صحيح ان رجال الدين يخطئون ولكن اما قيل لنا : « اسمعوا اقوالهم ولا تفعلوا افعالهم » اذا سمعت الاولاد والشبان كلاماً من هذا النوع يبالفون بالتحامل على الرؤساء الروحانيين ، نحن نريد ان نصلحهم ؟ ! الله يدبرهم »

— ما لنا وللتوسع في هذا الموضوع ، قال بونا الياس ، ليقم كل منكم بواجباته الدينية حسبما يعلمنا السيد المسيح في انجيله المقدس وما لكم الآن وللرؤساء ، فعسى الايام تصلح شؤونهم .

« انا اشكر عواطفكم نخوي يا اولاد رعيتي واطلب من العناية الالهية ان تساعدني لخدمكم الى آخر نسمة من حياتي . »

— الله يطول لنا عمرك يا بونا الياس ، صاح اشخاص عديدون ، انت كثر ثمين في هذه القرية .

— نشكر الله ، قالت عجوز من احدى الزوايا ، نشكر الله ان المسألة انتهت على سلامه . تصوروا حالتنا بدون بونا الياس في هذه الضيعة ! لا اظن ان الضيعة تقدر ان تعيش بدونه . الله يطول عمره ليبقى اباً لنا جميعاً .

ثم انتقل الحديث عن اشياء قروية وعائلية ، ولم ينته الا حول منتصف الليل وقت تفرق الناس ، كل الى بيته ، ليتاموا قريري العين بعد ان تأكدوا من بقاء بونا الياس بينهم .

IX

كان جد بونا الياس قد وضع وصية مقدسة منذ خمسين سنة ، قصصها تناقله
أبناؤه واحفاده وتقيّدوا به تقيّداً تاماً : وذلك التصميم هو فقب كل اراضيهِ التي
لم تكن مشجرة والتي لم تكن احراش صنوبر وسنديان . وكان بونا الياس في
العاشرة من عمره وقت صمم جده على ذلك ، ومنذ ذلك الحين والعائلة تردد حلم
الجد الذهبي وتسعى لتجعله غاية كل فرد : يسعى هو لتحقيقه وينقله الى ابناؤه في
حياته ، ويوصي به ساعة موته . ومن كان يعرف الاراضي البور والصخرية الواسعة
التي تركها الخوري الياس القديم ، جد بونا الياس الحالي ، كان يظن انه من الجنون
التفكير بمشروع من ذاك النوع ، قد تعجز عنه الدول . ولكن الخوري الياس
النشيط ، الحكيم ، كان يعلم ما هو فعل المشاورة وما تكون نتائجها على كثر السنين
وقد كان بونا الياس الشخص المشبع بروح تلك الوصية ، تعيش في داخله منذ
خمين سنة . فقد التقطها من فم جده عندما اوصى بها في احدى سهرات الشتاء ،
وقد تدرب على طرق الشغل والنقب على يد جده مباشرة ، وفهم اساليب تنفيذ
المشروع كله من احاديثه المتواصلة في ذاك الموضوع . حتى انه غدا ، وهو في
العشرين من سنه ، بعد موت جده باعوام ، يرى في نومه تلك البراري القاحلة ،
النابتة بالشوك والصخور ، كروماً شقراء ، بنيت فيها المعاصر وارتفعت فيها
العرازيل ، واصطنعت فيها الكهوف الواسعة لتقي الفلاح وقت الامطار المفاجئة .
وكان يسعى بونا الياس ، وهو شاب ، واشقاؤه فتيان حوله ، ليغذي ذلك الحلم
بجياتهم فيصبح يقظة تعمل لتحقيق نفسها عاماً بعد عام ، بل كان يضيف الى تلك
الوصية شيئاً من الاحترام والقدسية حتى اعتقد اشقاؤه اخيراً ان عظام جدهم لن
تكون مرتاحة في رملها الا اذا حققوا الوصية .

وكاد المشروع يفشل والوصية تتلاشى من الازدهان عندما غاب بونا الياس عن البيت والقرية ، واعتكف في الدير خمس سنوات ، منقطعاً كل الانقطاع عن قريته وارزاق اجداده ، مكروساً كل اوقاته لصلوات لا نهاية لها ، ولا هو كان يحس انها ضرورية كلها لخلاص نفسه :

« أليس الشغل المخلص في الارض الطاهرة ، الكريمة وسيلة نافعة لاتصال الانسان بالخالق ؟ أليس تقليب التراب السخي ليغذي ويشمر ، فيشبع الجائع ويكسو العريان ، اجدى من تقليب الصفحات على « القرابه » وترتيل كلمات تتردد كل يوم حتى كادت تفقد كل معانيها وقوة حرارتها ؟ »

هذا ما كان يترأى لفكر الاخ الياس ، وير كالسهم في خاطره احياناً ، دون ان يجراً على التأمل فيه ، لان افكاراً كهذه تعد كفراً في نظر الطقوسيين هو يجب الصلاة ، والتعب ، بل يجب الكهنوت ويشعر انه مدعو ان يكون خلفاً لعمه وجده ولكنه يحس بملل وسأم في الحياة الرهبانية ، وهو لم يقصد من التهرب الا ان يكون كاهناً في قريته ، لاقسيساً في احد الاديار .

وبما انه كان كبيراً وامياً عندما احس بدعوة الى الكهنوت ، اشار عليه اقرباؤه انه يتعلم في الدير ليصير قسيساً ثم هم يسعون لاعادته اليهم والى بيت ابيه . ان حياته في الدير كانت مستحيلة لانه ورث عن جده الخوري الياس بغضاً ومقماً للربان وتطمعهم على الاهالي وارزاقهم رغم ما عندهم من الاملاك الواسعة . فقد كان لجده مشاحنات طويلة مع الرهبان جيرانه على حدود الارزاق ، لم تنته الا عندما اقام جده جداراً بينه وبين املاك الدير . واهم ما كان يشغل فكره عندما اصبح قسيساً هو تحقيق مشروع جده . فقد علم ان اسقاء يتهانونون بالعمل ويختلفون على اشياء تافهة ويكادون يقسمون الارزاق وينفصلون عن بعضهم فتتلاشى بدون شك الوصية المقدسة ، وتنحل روابط العائلة التي كونت ، بدوافع الفطرة والنشاط المتوارث ، اكبر شركة زراعية تعاونية في تلك المنطقة الجبلية الصخرية .

وقد حاول ان يشتغل في الدير ، ليرضي قابليته وحبه للعمل ، ولكن كيف يمكنه ان يوزع نشاطه وقلبه على محيط يشتغل فيه الناس كأنهم مسخرون ، يضع

العمل المتقن بين تلك الفوضى الكسولة التي تشبط عزائم الشياطين المخاضين ، امثال بونا الياس فبعد ان صار بونا الياس قسيساً وعلم انه اصبح يقدر ان يحل محل جده وعمه في القرية ، امست الايام في حياته الشئمة اطول من السنين واسودت الدنيا في وجهه حتى كاد يتحول عن طريقه القويم المرسوم في اعماق ضميره لحياته كلها ، وقد ساورته افكار لا تنطبق على مزاجه الهادئ وفطوره الطيبة ، فحاربها بصبر منتظراً ساعة انقاذه من بيئته ، لا تربطه بها اية عاطفة ، بل تشمل امامه كل يوم الادوار الرهبانية الجاهلة التي كان ينجده عنها جده وقت كان صغيراً .

ان عقلية بونا الياس المفطورة على العدل والمحبة والتواضع والنشاط وحب الفلاحين الذين قاسمهم اتعابهم وايام ضيقهم وتربية اولادهم بالتعب والتقتير والشقاء ، ان تلك العقلية الراسخة ، تسمثر وتثور عندما ترى الفرق بين حياة الرهبان المرفهين المرتاحين وحياة شركائهم العاملين ليل نهار دون ان يحصلوا كفاف ايام الشتاء الصعبة لذلك كان كل ما في نفسه من فضائل يدفعه ليعود الى قريته الصغيرة حيث اتحدت عاطفته بالناس وبالارض كما تتحد النفس بالجسد .

ولما عاد الى القرية ، منذ ثلاثين سنة ، اخذ ينتقل من بيت الى بيت ، كأن في كل بيت اطفالا يريد رؤيتهم وتقيلامهم واشقاء يريد التمتع بمشاهدتهم ، واخذ يدور في حقول القرية وكرومها كأن لكل شجرة سرّاً ينتظر ان تسره اليه ، او كأن في قلبه خزانات للمحبة ، اطفحها البعاد والحنين ، فأراد ان يوزعها على الناس والارض !

ومنذ ثلاثين سنة تجري من قلبه الطاهر ، على كل فرد من هذه القرية الحبيبة ، ينابيع الحنان والرافة والمحبة ، ولا ينضب معين قلبه بل يزداد تدفقاً واندفاعاً . ومنذ ثلاثين سنة يغذي هذه التربة المباركة بكل قواه الجسدية وهو يشعر انه يأخذ من الارض ولا يعطي لانه يؤمن ان ذلك الشغل المتواصل هو الذي حفظ عزمه ونشاطه رغم دخوله في العقد السابع من عمره

X

قبيل الحرب الكبرى كانت وصية اخوري الياس القديم على وشك ان تتم .
لم يبق الا تكميلات بسيطة : هنا جل صغير ، وهناك جهة من تصويبة ، وهناك
ارض منقوبة لم تنصب بعد ، لان الصيف داهم موسم التشجير فاجلت الى
الشتاء القادم .

وما تراءى شيخ الحرب حتى كان كل شي قد تم بصورة كاملة ، وغدت
« النقبات » التي بدأت شركة بونا الياس يشغلها منذ ثلاثين سنة ، توج بأشجارها
وانصابها واخضرارها ، تحميها الاسرار العالية ، كانها ابناء الملوك ، بل هي فرق
من رعية بونا الياس ، تألفت ، حسب اعمارها ، لتفروح قلبه وتجد الخالق معه .
ولكن الشركة الجبارة ، انتهت من مشروعاتها الطويل منهوكة القوى ،
فارغة اليد ، تسترحاها تستيراً الى ان تبدأ بساتين التوت والكروم الجديدة باعطاء
اثارها . وذلك ان يكون طويلاً : ان تمضي خمس سنوات حتى يغدو اشقاء بونا الياس
ملوكاً مخفيين ، عندهم مسن موارد الشرائق والزيتون والنبذ ما يكفل حياتهم
الى ولد ولدهم .

منذ ان بدأوا بشروعاتهم وهم يفترون على نفوسهم ، يكبرسون قوة سواعدهم
لنقب اراض جديدة ويعيشون فقط من موارد ارزاقهم . ولو كانوا اشتغلوا
بالمقابلة ، وهم احسن فعلة في المنطقة ، لكانوا جمعوا مئات الليرات الذهبية . ولكنهم
فضلوا ان يتقيدوا بالوصية وان تكون ثروتهم اشجاراً نامية في الارض . هم ، كما
كان جدهم ، لا يعملون لنفوسهم ، بل لابنائهم واحفادهم ، وها هي الان حياة
احفادهم مؤمنة الى اجيال عديدة ، اما كان يقول جدهم اخوري الياس : « قفة
شلوش ولا قفة قروش »

تنفس اعضاء الشجرة الصعداء عندما تم مشروعيهم ، وبونا الياس وقد قارب السبعين
 لم يعد يتعاطى الاشغال المتعبة . بل يرتب بعض الكماليات في كل نقبة ويفتش
 عن المطاعم الجيدة في فصل الربيع . وهو رغم سنه ، ما يزال يقدر قبل الفجر ،
 وتطلع عليه الشمس في الكروم يرافقه غوها اليومي ، كانها اولاد خلقت من صميم
 حياته ، يريد ان يزودها بما تبقى من نسمات حياته . هو يراها الرسول الامين الذي
 ينقل الى الاجيال المقبلة حماس نشاطه ، وسخا عزمه ، ونقاوة قلبه . قد يشوه
 الانسان كل فكر ، وكل فضيلة ، وقد ينسى كل جميل ، وكل محبة ، ولكن
 الشجرة تنمي في كل غصن من اغصانها عطايا الانسان وقطيعها لابنائها مضاعفة
 بعناصر الارض وعناصر السماء ! أليست الشجرة احفظ من الانسان اذن للعهد
 والجيل ؟ ...

ولكن بونا الياس لا يفكر بكل ذلك . بل يريد هذه الشجرة خادمة
 لقريته واحفاد قريته . هو يرى هذه الشجرة وسيلة لتخليد حبه هذه القرية التي
 تعيش كعائلة واحدة والتي تحبه بكل عواطفها ، ويحبها بقلبه وساعديه وكل وجوده .
 لقد اشتغل ارضاً هي ملك اشقائه وهذه سنة المحبة يخضع لنواميسها ويحافظ على
 تقليدها . ولكن عمله سيفرح قلب كل انسان : وهل سيمر ابن قريته العطشان
 على كرم اشقائه ولا يبذل حلقه بعنقود اشقر ناضج ، وهل ستمر العذراء بطريقها
 الى العين وهي جائعة ولا تقطف من قينة تتدلى اغصانها فوق الطريق ؟

ان العجوز الفقيرة ستأتي ايام الشتاء وتلاً ابريقها زيتاً من عند احفاد بونا الياس .
 والكهنة في الرعية لن يختاروا الا نبيذ الكروم التي غرسها بونا الياس « مسكة »
 لذباثهم .

وفي الاعياد سيجتمع شبان القرية في بيت احفاد بونا الياس ويشربون ويترحلون
 على من ورث . هذه الصورة المبهمة التي تمر عواطف غامضة ، ولكنها لذيدة في خيال
 بونا الياس وقلبه تفهم ذلك القلب غبطة لا تضاهيها الا غبطة الذين يرتاحون بالعطاء
 والمحبة كما ترتاح الام باطلاق جنينها الى النور فتعطي ينبوع حنانها مجرى ليتدفق

صحيح ان احفاد الخوري الياس خرجوا منهم كين من مشروعاتهم الذي اكل
ثلاثة عقود من حياتهم واستهلك شباب ابنائهم وبدأ ينهك عهد الرجولة . انما الان
يمكنهم ان يناموا ملء عيونهم . فثروتهم تنمو ليل نهار ويمكنهم الان ان
ينقسموا قسمين : قسم يسوس الارزاق وقسم يشتغل بالاجرة ، فهم احسن فعلة
واحسن فلاحين ، وفدانهم احسن فدان في المنطقة ، بل هم ارباب من اشتغل في
الارض ، في المنطقة كلها .

وهكذا بدأ الهنماج الجديد لحياتهم ، منتظون ان تنمو غلالهم وترىحهم
قليلاً بعد عنايتهم الطويل . وقد فهموا من القسيس ان لا يفكروا بقسمة الاراضي
الا بعد موته . هو قد عين لكل منهم حصته وهم قبلوا بذلك ، ولكن الاملاك
لا تفرز الا بعد ان يغمض عينيها ، فعيناه تريدان التمتع بوحدة هذا البيت وارضيه
الى آخر رفة من الجفون واخر نظرة من الحدقتين .

كان احفاد الخوري الياس ، اذن ، في بدء عهد جديد ، عهد راحة نسبية ، لان ثقل
الوصية ازيح عن ضميرهم ، كانوا في عهد ازدهار حالهم عاماً بعد عام عندما تراءى
شبح الحرب الكبرى .

وما عساها تهمهم هذه الحرب ؟ انهم عاشوا ثلاثين سنة بدون ان يدخل لهم
مليك واحد من خارج ارزاقهم ، ولم يتضايقوا . اينهمون الان وهم رجال عشرة
ولهم ربع القرية كروماً وبساتين .

لهجت القرية كلها بسيرة الحرب الأليم ! استمروا في اعمالهم العادية ولم تفض
سنة الحرب الاولى حتى كان في صندوق ام جريس ربة العائلة كلها ، مئة ليرة
عثمانية ذهباً ، عدا عن الكسوة والاثاث لبيوت ثلاثة ولنحو خمسة عشر شخصاً
اشتراها بو جريس في سنة ، وكان بو جريس ، وهو الوحيد الذي يحب الابهة في
العائلة كلها ، يبتسم ابتسامة سخوية وازدراء ، كان يقول في نفسه : لن تنال منا
الحرب غصن زيتونة خضراء ، وعندما سمع مرة ان الناس يستعدون ليزرعوا بساتين
التوت والكروم قحاً ضحك ضحكة عالية ثم قال بجد وحزم : « والله ان تعرف
القمحة ارض ارزاقى ولو عرفت التربة جسدي ! »

XI

كان « البستان » أحب محل الى بونا الياس من بين الارزاق كلها ، فمئذ بدء الصيف الى اواخر الخريف لم يكن يلتقى القسيس الالهناك في ساعات فراغه وانفراده . وقد ساعدت البستان عوامل عديدة ليكون المغنح ، المفضل : فهو قطعة الارض الاولى الذي نقيها بونا الياس بعد موت جده وابيه ، وقت كان اشقاؤه اولاداً لا يقدمون له الا مساعدات صغيرة ، وقد اتقن نقيبهم وعمار حفافيه ؛ ونقى اغراسه من احسن ما يوجد في المنطقة كلها ، حتى عندما ظهرت نصباته المتنوعة بعد ثلاث او اربع ساعات وبدأت تطعم التين اشكالا والعنب انواعاً سماه الناس البستان وابسه هذا الاسم على طول السنين وتلاشى اسم « الصوانة » الذي كان يطلق على ذاك المحل في الماضي .

والبستان هو اقرب اراضي بونا الياس الى الكنيسة والقرية ، بينما هو يجاور الاحراش المحيطة بالكنيسة .

ثم ان بونا الياس كان يحس وهو في البستان ، انه في ملك يخصه ، وهو لا يخشى تدمير اهل البيت من الضيوف العديدين ايام الصيف . اذ قد غدا معروفاً عندهم ان « البستان » هو محل اقامة القسيس في الصيف ، يستقبل اصدقاءه وضيوفه هناك ، حتى ان اهل بيته لا يترددون عليه غالباً لانهم يكونون مشغولين في الكروم الاخرى ، بل يرسلون زواته ظهر كل نهار لتكفيه اليوم كله .

وقد وزع القسيس الارزاق كلها على اخوته والبستان لم يعين بعد وارثه . كانه اراد ان يشعرهم ان سلطته الشخصية تبقى على البستان الى آخر يوم من حياته . وقد ظن اهله انه سيخص البستان بجريس لان اعباءه كثيرة على الارزاق كلها ولكنه الى اليوم لم يقل شيئاً .

البستان هو الان مقصد الشيوخ والشبان والاولاد ، يأتون الى بونا الياس زائرين وهم يعلمون انه سيدعوهم لياكلوا التين والعنب قطعاً من الاشجار ، اذا جاءوا صباحاً او مساءً ، وقت الهروء ، اما في ساعات الحرارة فتمده سلة عنب وسلة تين معلقتان دائماً داخل السقيفة ، وجرة ماء مسح ، يضعها في الليل على سطح السقيفة قرب الخيمة ، ويدخلها صباحاً كي يحفظها باردة لزوار النهار .

وبينما يكون بونا الياس متمشياً في « بستانه » تسمعه من بعيد متكلماً كأنه يخاطب احداً ، وتندش عندما تقترب وتراه وحده فيخيل الى من لا يعرف اطواره وعواطفه انه خواط في عقله . ان شدة محبته لاشجاره يدفعه بدون انتباه منه ان يخاطبها كأنها بشر امامه . فاذا اكتشف عشب طفيلية اقتلعها من شلوشها قائلاً « من اين جئت يا منحوسه » ثم فسحها وقطع شلوشها ورماها في الارض لتكون غذاء الاشجار المثمرة . واذا وجد غصناً لواه حادث ما وغير اتجاهه ، حتى كاد يتشوه منظره ، اعاده الى حالة طبيعية قائلاً : « من عمل فيك هكذا ، يا مسكين ؟ » وعندما يجد جذعاً من الدوالي واقعاً من مكانه على الارض ، يرفعه على سلكه ويقول له « يا لله عربش لفوق » والويل للغصن اليابس الذي يلمحه بونا الياس في زيتونة ، فانه يستل منجله حالا ويقطعه من اصله ويأخذه معه الى قرب السقيفة حيث يضعه فوق كومة الاغصان اليابسة .

ان رعية الاشجار لا ترتعجه كرعية الناس ، ولو اخذت كثيراً من قوته ؛ هي طائعة ، هادئة ، تنتظره بصمت ، هو يفهم كل معانيه ، وتناديه بانثار يانعة ، فتقرب قلبه الى قلبها ، كما يقرب الاطفال قلب الرجل من المرأة .

وعندما يرتاح بونا الياس في الكرم ، لا يكون دائماً في السقيفة ، او في الخيمة بل له زوايا خاصة ينتجها احياناً ، واشجار مفضلة يجلس بافائها ، فالبستان كله يؤلف بيته الصيفي ، والاشجار اصبحت تعرف مواعيد مجيئه بالنسبة الى الوقت : فالتيينة السوداء الكبيرة تنتظره غالباً بعد القداس ، عند بزوع الفجر ، فتمتد اغصانها مقدمة التينات المعسلة بسكوت وحشمة ، وتود لو تمكنت من رفع حجاب اوراقها عن كل التينات الناضجة المسترة في عباها . هي لا تقصد ان تحتفي عن بونا

الياس ، ابيها وامها ، ولكنها هربت من العاصفر المتعدية ، فحرمت نفسها من القملة الابوية .

وعند الظهر يكون غداء بونا الياس ، قرب السقيفة ، تحت الزيتون الكبيرة ، الوحيدة التي كانت وقت كان البستان يدعى «الصوانة» ، فهي زيتونة جبارة قديمة تحتل نحو اربعمائة متر مربع من الارض ، زرع بونا الياس اغراساً عديدة حولها ، عندما نقب «الصوانة» فاعتبرت ذلك تحدياً لها ، وتعدياً على مساحتها الحيوية ، لذلك ابيست كل الغرسات الجديدة بيجشع شلوشها الكبيرة المحتركة ، ضمن مداها الحيوى الواسع ، كل عناصر التغذية .

اما عند العصر ، فلا يعرف اين يوجد بونا الياس الا اخصاؤه : فهو يعمل قياولة قصيرة تحت العريشة البخورية في آخر البستان الى جهة الحرش . فقد نجحت «البخورية» كما هي معروفة عند العائلة كلها ، نجاحاً نادراً ، كدالية برية ، لذلك استحققت ان تكون المختارة ، عند العصر طيلة ايام الصيف ، وان تكون لها خيمة خاصة . وبعد القياولة المختصرة يأخذ بونا الياس شحيمته ويبدأ بصلاته وغالباً ما يأتي زواره في تلك الساعة ، فينادونه ولكنه يبقى مصلياً ، لا يهتم لندائهم ، فيجلسون متحدثين او متفكرين الى ان يطل عليهم بغمة فلا يعلمون اكان في الكرم ام هوأت من بعيد .

XII

في خريف ١٩١٦ لم يكن احفاد الجوري الياس احسوا بوجود الحرب . ولكنهم شعروا بخوف الناس من المستقبل . ولاحظوا ان استئجار الفعلة والفلاحين يقل يوماً بعد يوم فالتاس ترجلوا بعد التواني والتخنت وتجردوا للعمل في اراضيهم خوفاً من مجاعة يتوجسون منها . والفريون لم يعودوا يفكرون بنقب الاراضي وتشجير الكروم ، بل بتحسين الاراضي السليخ يزرعونها قمحاً . وبونا الياس واشقاؤه لم يعد عندهم اية ارض سليخ بعد تتميم مشروع الثلاثين سنة ، فلم يفكروا الا

بمتابعة اعمالهم العادية ، كأن احاديث الناس لا تعنيهم ،
ماذا يزرعون ؟ أيزرعون عواد التوت ؟ ايزرعون الكروم البقي تنمو الان
بطاعيمها وتغلا الارض والسما. اخضراراً ؟ هذا طبعاً لا يخالج فكروهم
واحقاد الخوري الياس هم عائلة عديدة ، لا تقل عن خمسة عشر شخصاً ، يلزمها
اربعة ارطال من الطحين يومياً عدا عن الحبوب الاخرى الضرورية ، وعن الملابس
والكعاليات .

ما دخل شتاء هذه السنة ، سنة ١٩١٦ ، حتى اخذت اسعار الحنطة بالصعود .
والاسعار تقفز كل يوم قفزاً . فارتاع الجبل كله ، وتدقق الجبليون الى جونية وزحلة
يشترون ما مكنتهم سعة يدهم من شرائه . وتهافتوا الى الارض يفتشون عن مساحات
يزرعونها فلم يجدوا الا التوت مخضراً امام عيونهم والزيتون متموجاً على مرمى
انظارهم ، والكروم آمنة ، متمدة ، تارة تنهافت على الارض وحيناً تنهادى في الفضاء
فمنهم من قشوا البلان والفشوك من الحقول وزرعوها ومنهم من تأسفوا على التوت ولكنهم
خاطروا بزرعه ، ومنهم من حافظوا على التقاليد ، تقاليد تعزيز التوتة المباركة ،
فرفض فكرة الزرع رفضاً باتاً وانتظر تطور الظروف .

اما بونا الياس واخوته فلم يقبلوا فكرة الزرع ولا قبلوا فكرة التموين ايضا
فهم لم ينتبهوا الا بعد ان امست كل اسعار الحبوب مضاعفة ، فظنوا ان هذا الارتفاع
يعقبه هبوط وتريثوا .

وما جاءت الكوانين حتى بدأت الاسعار تثب وثبات بعيدة تضاعف الاسعار
اسبوعياً ، وصار من الصعب جداً على من لم يشتربخسمة غروش ان يشتري بعشرين
غرشاً . واخذ من لم يتمونوا يشترون بالوطيل عوضاً عن المشتري بالطعنة والقنطار
وكان ذلك التريث ضربة عليهم لان الاسعار طلقت عادة التقلبات صعوداً وتزولا
واندفعت في الارتفاع الخيف لا تبدأ ولا تتباطأ .

عند الغداء والعشاء . كانت تمر احياناً شعورية من اخوف في جسم بونا الياس ،
ذلك عند ما يجلس خمسة عشر شخصاً لياً كانوا . فبعلمه ان بو جريس اشترى عشرين
رطلاً . فلا تقضي ايام اربعة الا والبرميل فارغ وام جريس تطلب حنطة . ولم يرض ذلك

الشتاء حتى فرغ صندوق ام جريس من الليرات العثمانية ، ولم يبق الا نصف قنطار من الزيت يمكن بيعه وشراء حنطة بشمه .

— ماذا تظن يا ابو جريس قال بونا الياس مرة لانيه ، ايكون موسم القز جيداً ، واسعاره حسنة هذه السنة ؟ »

— بدون شك ، امكن ان يموت الحرير ؟ الحرير احسن من الذهب ! .

— الله يدبر امرنا ، يا اخي ! لم يعد امامنا الا موسم الحرير وهذه البقرات ، اما الزيتات فلا يجب ان نبيعها . ابيع الانسان زيتاً ايام الحرب ؟

— لا تعقل همأ يا بونا الياس ، عندك رجال يفتتون الصخور وانت خائف ؟ مهما اشتدت الحرب نحن قادرون ، بقرة الله ، ان نعيش ونحافظ على ارزاقنا . عندنا موسم الحرير ، وموسم العنب والتين ، وعندنا احراش نقطعها ونبيعها ، طمن بالك الله يدبر !

XIII

جاء موسم القز فاستقبلته القرية ، لأول مرة في تاريخها ، استقبال ضيف ثقيل ، فقد طلعت الاشاعات مسبقاً ، ان اسعار الثرائق ستكون ساقطة . وكانت اسعار الحبوب تتصاعد رغم قرب الحصاد .

كان الحرب وويلاتها ومظالم اتراكها لا تكفي لتعذب الجلبين حتى جاء الجراد جيشاً متطوعاً لاتلاف المواسم والقضاء على كل موارد الشعب . فان جيوش الجراد غشيت في ربيع ١٩١٧ هضاب الجبل وسفوحه زاحقة مع اشباح المجاعة الخفيفة ، فقاسمت الجراده الشريرة دودة القز المباركة قوتها ، وهاجت الكروم والحقول كلها كأنها نار آكلة ، تحتاج الهشيم واشتد الشتاء . تواكب المخاوف والهواجس ، ووقف كل عمل في القرى . فلا الفعلة ولا الفلاحون يجدون ملاكأ يشغلهم . ولا المكارون يجدون ما ينقلون على دوابهم الا الحطب ، ولا يمكنهم ان يشبعوا تلك الدواب بل

تضعف من يوم الى يوم . كل من لهم املاك قليلة او ليس لهم املاك تحرز ، تزحوا الى السهول يفتشون عن معاشهم . وتهاافت من بقي في القرى الجبلية الى الارض يزرع كل شهر منها . فكنت ترى الفلاحين يبذرون القمح في عواد التوت كانه سم يودع الاتلام ليقضي على ميراث الآباء . والاحداد .

اما في النقباء والكروم الجديدة حيث تنمو النصباء بسدلال كالاطفال ، فكان القمح وباء فتاكاً يخنق هذه الاطفال الوديعه المطمئنة ، كجتاح بربري قاس .

وكانت حالة بونا الياس مع اشقائه صعبة جداً . بالكاد قدروا ان يقطعوا الصيف واخريف من موارد موسم القز والعنب . وقد باعوا رأسين من البقر ليشتروا بعض الكسوة القروية . وبها الشتاء يزحمهم واهراؤهم فارغة من الحبوب . ليس عندهم الا اغلال اراضيهم من زيت وزيتون وتين ودبس .

وقد احس بونا الياس بتخرج الحالة قبل الجميع . فاخذ فرصة وجود العائلة كلها على العشاء واراد ان يبحث موضوع الزرع ومونة الشتاء واشياء اخري . فقال مخاطباً بو جريس .

- والآن يابو جريس ماذا تقول ، وانتم كلكم ليعطنا كل منكم رأيه بهذه الحالة الخفيفة . انتم ترون كيف يتسابق الناس الى زرع اراضيهم ، والجميع يؤكدون ان سعر الحرير سيكون ، الموسم المقبل ، اسوأ من هذا الموسم الماضي . وانتم تعلمون يا اولادي ان اعتمادنا على التوت والقز . فالكروم لا تعمل لنا شيئاً اذا كانت الشرانق ساقطة . ونحن خمسة عشر شخصاً يأكلون كل يوم ، لا تنسوا ذلك . والشغل لا يضحك عليه بالا كل كالخواجه ، الشغل يجب ان يشبع .

- الناس كلهم يقولون ان الحرب ستنتهي بعد هذا الشتاء ، قال بو سعيد الشقيق الاصغر . ونحن نقطع هذه الشتوية كيفما كان الامر ، بقوة الله . سوف اذهب انا مع بغلي الى السهل ، وهناك اشتغل بنقل الحبوب الى زحله وغيرها ، وكل خمسة عشر يوماً او شهر ارجع الى البيت واحمل اكم حبوباً بأجرة شغلي ، ويمكنني ان آخذ ام سعيد وسعيد معي ، اذا اردتم ، لاخفف مصروف الخبز هنا ، ما رأيكم ؟

- هذا رأي في محله ، قالت ام جريس ، والمكاراة خلقت لهذه الايام العسرة .
- وانا ، قال بو موسى ، اقدر ان اشتغل بتقطيع الحطب بالمفاعلة او بالمقاطعة ،
وابقى قريباً من البيت . ويقال ان الفعلة يأخذون جراية كل يوم ، من الدولة ،
عدا عن اجرتهم . واخونا بو جريس يبقى مع الاولاد كلهم ، لسياسة الارزاق
والبقرات .

- اي متى قطعت حطبا بالاجرة اياماً على بعضها ، يابو موسى ، قالت ام موسى ،
اتكفل حالك انك تثبت في هذا الشغل ؟ .

- من بعد اركان ، النسوان لاتسبقونا باعطاء الرأي ، اعيرونا «نسوطكم» !
قال بو جريس

- متى كان بونا الياس هنا ، لاحد يعطي اوامر ، قالت ام جريس برعل .
- بو جريس ، يامرة اخي ، لايقصد اسكاتكن بل تمهلكن قليلاً لتعطى راينا
نحن ، قال القسيس . اذا اردتم رأيي ، فانا اقول ان المهم ان نبقي هذه الايام الخطرة
قريبين من بعضنا لاننا نسمع كل يوم بأخبار العصابات تقتك بالمسافرين الى السهل
وتسلبهم كل مامعهم . الا يمكنك ان تشغل بفلك هنا يابو سيعد

- اشغله بالحطب . الشغل كثير ولكن الاجرة قليلة ، بالكذ تكفيني مع
بغلي . اما في السهل فالعلف كثير ورخيص والاجرة غالية . نحن احسن من الناس ؟
كلهم يذهبون الى السهل .

- الكل يذهبون ، يا اخي ، ولكن نحن تعودنا ان لانفترق وتغيير العوايد
صعب ،

- اذا كنتم تريدون شغلاً نافعاً ، اسمحوا لي ان افرّد حوش الصنوبر وحوش
السنديان وانقل الحطب الى بيروت ، قنطار الحطب اليوم يساوي ايرتين قال بو سعيّد .
تريد ان تقطع الحرش ؟ قال بو جريس بغضب واندهاش ، مات جدك وهو
يوصي بالحرش ، قبل عشرين سنة لاتضرب فيه فأس ابداً .

عندما كنت اذهب لاقطع اغصاناً قليلة للعترة كان يحوصني دائماً ويسألني من
اين قطعت كل غصن . فهل يجوز الآن ان نبدأ بقطعه وهو في عز نموه ؟ .

- اهم شي . الان ، قال القسيس ، هو ان نقرر اذا كنا نزرع قسماً من اراضينا
قحاً او لا نزرع .

- نحن نطلب رأيك انت ، قال بو جريس ، وهو يريد ان يرفع المسؤولية عن
نفسه ، ثم هو يعلم ان القسيس ان يريد الزرع .

وبيناهم في هذا الحديث طرق الباب ودخل بو طنوس مع امرأته وولده
طنوس . اهلاً وسهلاً بعمي بو طنوس ، اهلاً وسهلاً ، قالت ام جريس ، وسعوا
محلاً لعمكم ولمرة عمكم ! طنوس ! انت اقعد هنا حد مني .

وجلس الجميع فقامت ام جريس :

- طولتم علينا الغيبة ، يا قرايبتنا . . . اهلاً وسهلاً . . .

- يا عمي بو طنوس ، قال القسيس ، ما الاخبار عندك ، ما رأيك بهذه الظروف
القاسية ؟

- رأيي يا ابن عمي ، ان نزرع السطوح قحاً اذا تمكنا . الحالة حرجة ، حرجة
جداً ! اياكم والتهامل ، اري نهزتكم بطيئة ، ولا لاحظ انكم مهتمون بالزرع ،
اتريدون ان تموتوا كلكم ؟

- الله يدبر يا عمي بوطنوس ؟ قال بو جريس ، ماذا تريد ان نزرع ؟ انزرع
عواد التوت ؟ اتريد ان نزرع النقبات ؟ ليس عندنا ارض سايخ مثلك لنزرعها .

- اتظن اني سأزرع السليخ فقط . سأزرع كل شهر من الارض . ولولا خوئي
من « الدلف » لزرت السطح . ماذا يفيدنا الرزق اذا امتنا من الجوع .

« انا جئت خصيصاً ، هذه الليلة لانيهمكم . امس كان طنوس في زحله ،
الحبوب تركض ركضاً بالصعود . بيعوا بعض رؤوس من البقر وتمنوا لان الغلاء
سيكون فاحشاً في عز الشتاء . انتم تعلمون ان امركم يهمني كامر عائلتي ، متى خلصنا
من هذه الحرب نجدد كل شيء . المهم ان نبقي ، لا تتأسفوا على شيء . ! من يعلم اي
متى تنتهي الحرب ؟ ! أليس هكذا يا بونا الياس ؟

- بلا ، بدون شك ، اجاب بونا الياس ولكن اذا قدرنا ان نهدي هذه السنة
ايضاً ، الا قطن انه ربما تنتهي الحرب ونخلص ارزاقنا من الخراب ؟

- عندك خمسة عشر شخصاً ، يابونا الياس ، كيف تريد ان تهدي ، قال بو
طنوس ، أليس من الاوفق ان تكون الارزاق في خطر ، لا انتم ؟
- قولك عين الحكمة ، يا عمي بوطنوس ، قال جريس ولكن انت تعلم كم
نحن تعذبنا وشقينا لنقب هذه الاراضي ، فقد كلفتنا دم القلب قبل ان نصبناها
وطعمناها ، أنتلفها بسنة واحدة ؟ .

- زرع موسم واحد ، يا ابني ، لا يمكن ان يقتل الاشجار قال بو مانوس ،
ازرعوا انتم هذا الموسم ، فاذا انتهت الحرب السنة القادمة كان خيراً ، وبادرتم حالا
الى تسميد الاراضي المزروعة وفلاحتها اوجماً عديدة في الموسم التالي ، حتى تستعيد
ماويتها ، واذا لم تنته الحرب ترزعونها موسماً ثانياً وتضحون بالاشجار في سبيل
حياتكم .

- يا عمي بوطنوس ، قال القسيس بجزن ، لا يعرف قيمة النقب والتشجير
والتطعيم الا من تقوس ظهره من ضرب المهدة ، وانعقرت كتفاه من شد الجبل ،
وهرس اصابعه مرات عديدة بالخل وتقليع الصخور الا يعرف قيمة الشجرة الا
من طعم النضبة مرات عديدة حتى صح مطعومها ورباه كما تربي الام طفلها .
انت انعم الله عليك ، ووفق ابنك في امير كافيرسل لك المال بالميات ، ولا
تشتغل بيديك مثلنا ، المسألة ليست سهلة علينا ولكن على كل حال معنا وقت بعد
الى اواخر هذا الشهر .

فهر الجميع رؤوسهم بجزن قاييداً الكلام القسيس وخيم على الجميع صمت كئيب .
وكانت حنة ابنة بوجريس الصغرى مشغولة في « المد » ومعها سراج الزيت
الصغير وما وقفوا عن الكلام هنيهة حتى جاءت حاملة صينية قش وضعتها على الارض
امام ام طنوس . فتناول جريس الطاولة الصغيرة ، الواطية وقدمها لشقيقة الصغرى ،
فوفعت اذ ذاك الصينية ووضعتها على الطاولة .

- لماذا هذا العذاب ، يابنتي ، يا حبيبتي ، نحن غرباء حتى تكلفني نفسك في
الليل هكذا ؟

- اهلاً وسهلاً ، لا شيء . من قيمتكم ، يا مرة عمي قالت حنة .

— حنة ! هذه قر ! دائماً منهمكة بعمها بوطنوس ، ما في لزوم ، ما في لزوم
يا عيوني !

ف نظرت حنة الى الارض و طفت حمرة الخجل على خديها تحت نظرات طنوس
الحادة . وبعد برهة استعادت جأشها و تقدمت فاخذت صحن التين الناشف و صحن
قلوب اللوز و قدمت لعمها بو طنوس قائلة : تفضل يا عمي .
— انا آخذ تيناً ، قال بو طنوس و اعطاني حصتي من اللوز الى طنوس .
رأيتك بذلك ؟

— رأيي كما تريد . ولكن طنوس عنده حصه وازيدها اذا كان يريد ، لا لزوم
ان تعطيه حصتك .

— صحيح ، صحيح . له حصه . واطفه يرضى بحصته ، قال بو طنوس
بمعنى مبهم !

فعادت حمرة الخجل تهاجم حنة فضحك الجميع ضحكة المرح البريئة . اما
طنوس فابتسم فقط و كانت ابتسامه حنة اخف من ابتسامته .
— قرب بجياتك ، يا عمي بو طنوس ، انت بعيد كثيراً عن الطاولة ، قالت
ام جريس .

— يد العيش طويلة لا تخافي ، قال بو طنوس .
واخذ الجميع يتنقلون من الاثمار اليابسة المنقاة خصيصاً للمونة . وكان على
الصينية التين المسطح المهبل ، و التين المطبوخ بسكر نثرت على وجهه قلوب الجوز
و اللوز ، و الدبس المصروب ، و العسل ، و لفة مسن قر الدين وضعت بدون صحن
في نصف الصينية .

ثم قام جريس الى « المد » و عاد حاملاً مخزراً و كباية كبيرة و قال : — « اريد
ان اذوقك نبيذنا الجديد يا عمي بو طنوس . »

— تين و نبيذ ، ربما ضرتني ذلك . ذوق طنوس هو اخبرني . والان ، على
« فوقه » اي متى ستذوق لي نبيذاتي الجداد يا بونا الياس ؟
عندما تريد ، غداً امر من عندك

- راحت السهرة الآن ، يا الله يا ام طنوس هيمي حالك !
« ولكن . مسألة الزرع لا تهملوها . بعدئذ تأتي ايام الصيف ولا ينفع الندم .
الله ينهي هذه الحرب حتى يرتاح فكونا . »
- بكير ، بكير ، ياعمي بو طنوس ، قال جريس ، عد ومد حتى تسهر
عندنا ليلة

- رأيناكم بنحير ، تصبحوا على خير .
- وانتم بنحير ، اجاب اكثر اهل البيت .
وانصرف بو طنوس مع امرأته وابنه ، فعادت العائلة الى الجلوس وكل فرد
منها واجم ، صامت . وبقي بو سعيد و بو موسى كأن السهرة تستأنف للنقاش
في الموضوع .
كل شي . هين جداً على من يقطع من لحم غيره ، قال بو جريس وهو يهز
برأسه .

- لو قطع رجله ثلاثين سنة على شجرة « المظل » ونصب وطعم ثم قلع
ونصب وطعم مرة ثانية لما كان يحكم على ارضاقنا هذا الحكم السريع بالاعدام
قال بو موسى : « المثل يقول ، ما لا تتعب به اليد لا تبكي عليه العين »
وهذا صحيح اتظنون ان الانسان يحب ابنه لانه ابنه ؟ كلا ! انه يحبه لانه تعب
عليه وسهر الليالي الطويلة على طفولته وتكبده المصاريف حتى رباه .

- هذه عين الحقيقة ، قال القسيس ، من عذبنا من هؤلاء الاولاد بقدر ما
تعذبنا شجرة حتى تسري اثماراً ؟ ليس عنقاً قول المثل : « الزرق عوض الروح » ان ما
يتعب به الانسان يصبح جزءاً من حياته ، فانا اتصور لان كيف ستصبح هذه
الكروم الجديدة اذا زرعتها !

- قد علمت ، يا اخي ، قال بو سعيد ، ان الناس في السهل لا يزرعون الارض
قمحاً على سنتين ، بقدر ما القمح هو قاس ومنهك الارض . فهو يمتص كل شي .
ولا يبقى شيئاً لغيره . فاذا كانت الارض تخافه هكذا فكما بالاحرى الاشجار
المدلة التي لم تعرف ارضها عشبة برية في حياتها .

— انا لا ارى ان نستسلم للخوف ، قال بوموسى ، عندنا بقر وعندنا بغل وحمار
وعندنا احراش ، لا يجب ان نفكر بالزرع .
— لا تنسوا ان عندنا اساور ومباريم تساوي لا اقل من مية ليرة ذهبية وعندنا ،
فرشات ولحف عديدة لا نحتاجها . ويقولون ان هذه الاشياء تباع في السهول بأسعار
جيدة ، الناس يبدلونها بالحبوب .
— لم نصل بعد الى الاساور والمباريم يا ام جريس قال القسيس ، وعسى ان لا نصل
وعلينا الان ان نتكل على الله ، وان نتوزع على اشغالنا باجتهاد والله يدبر
امرنا . قوموا لننام الآن فقد طالت سهرتنا . تصبحون على خير .

XIV

دخل شتاء ١٩١٧ على الاريايف اللبنانيه تواكبه اشباح واشباح . وما نزلت
الميازيب وهبت الرياح الثلجة عاصفة من الشمال والشرق حتى احس الناس بعري
يعرض اكتافهم وصدورهم لقساوة الصقيع ، ونجوع يوهن قواهم يوماً بعد يوم ،
وتوجسوا احوالا من الفاقة والامراض والمجاعة والموت في عمات الشتاء الموحشة ،
اهراؤهم خاوية ونظرتهم الى المستقبل عارية من الامل . اراد بعضهم ان يزرع
فتعسر عليه البذار ، وخافوا ان يموتوا قبل ان يأتي يوم الغريك والحصاد ، واستصعبوا
ان يرموا حبات في الارض هي ضرورية لسد رمق حياتهم ، فقدموها لاجوافهم
مؤجلين بها موتهم ، مستسلمين الى خفايا الغد المذعرة .

راى البعض ان الحياة في مغامرة يائسة يهيمنون فيها على وجوههم في المناطق
السورية البعيدة ، ينشدون القوت اينما وجد ويطلبون المأوى اينما شط ونأى ،
معرضين انفسهم للمجاهدة لرصاص الاشقياء ، وثيابهم العتيقة لجشع اللصوص
وقساوتهم . حملوا ثيابهم وما خف من رحالهم ، وعروا اولادهم وبيوتهم دون
تردد ، هم يفضلون الحياة متسترين باطهارهم على الموت لابسين ثيابهم !

وتشرّد الجبليون في مناطق مجهولة على سذاجتهم وقرويتهم المستكنة ؛
يناشدون مواطنيهم في حوران وجبل الدروز والشام اقواتاً لاطفال مجموعين ونساء
جفت صدورهن من الحليب . ولأول مرة في تاريخ الجبل احس القرويون ان لهم
في المناطق البعيدة اخواناً ومواطنين ولو من غير دينهم . فبينما كان الجبليون يسقطون
في اسواق زحلة عشرات ومئات كل يوم على مرأى من الاحبار الامراء والتجار
المسيحيين المستكبلين على الذهب والارباح الطائلة ، كان الفلاحون في حوران او جبل
بني معروف يقدمون للنازحين الجائعين غذا . وشغلاً وماوى لاطفالهم ومعقلاً لأعراضهم
وبينما كان الفقراء في القرى الجبلية يتجمعون منادين مسترحمين من خزنوا الدقيق
بمئات القناطير دون ان يحصلوا على شيء . كانت المضاف مفتوحة للوف الجبليين
المسيحيين في المناطق الدرزية ، والاسلامية البعيدة . ولكن ضربات هذا الشتاء
لم تمته عند هذا الحد ، فبينما كان من بقي من الجبليين يتدينون او يشترون بذاراً
لارضهم بشمن ما يبيعهونه من مصاغ نسائهم او اثاث بيوتهم صدرت اوامر « الدولة
العلية » بمصادرة البقر والبنغال لخدمة الجيش ، فاضطروا ان يزرعوا نكشاً بالمعول ،
وتجردت العائلة كلها من صغيرها الى كبيرها ، وكان ذلك ضربة قاضية على ارض
بونا الياس واشقاؤه . فمن عشرة رؤوس من البقر لم يبقوا لهم الا خمسة من العجول
الصغيرة ، لا تصلح للزرع ولا قدر الحليب .

اتخذ النزوح والتشرّد اذ ذاك طوراً جديداً اشد من الماضي واقسى ، وراح
بعض من صودرت ابقارهم وبعالهم يقتشون عن اهلهم المشردين ومنهم من مات في
الطريق برداً او قتلاً من اللصوص . ومنهم من بقي تائهاً لا يعلم اين اهله ، ومنهم
من استدل الى اجزائه الضائعة فلقى الحياة في المناطق المضيفة وتحلص من الموت
والتخوع الخيميين على الجبل .

جبل بني معروف بعد مئة الف ، يبقى شامخ الرأس ، عزيزاً مهيباً ، يحمي اهله
واغلالة وكل من أمه من المواطنين اللبنانيين ، بمضاء سيفه وشجاعة ابنائه ، وجبل
لبنان اربعمئة الف يحجز ساجداً امام اعدائه ، يفتكون به فتكاً ويميتونه عرياً
وشنقاً وتجويعاً .

موسم الزرع امسى في ايامه الاخيرة ، واحفاد الخوري الياس احسوا بوطأة الشتاء
الثقيلة ، وبالضيق يدخل شبحه ، لأول مرة ، الى بيوتهم . هاهم في نصف الشتاء
ولم يبق عندهم سوى ارضال قليلة من الزيت يمكن بيعها ، وسوى «عجلتين» صغيرتين
من نسل البقرات الاصيلية التي صادرتها الدولة ، لا يجوز بيعها مهما كلف الامر ،
اولا لصغرهما فشمها لا يحوز ، وثانياً لاستهلاك ما عندهم من الحشيش والزخات
والنشارين ، وثالثاً لاستبقاء نسل بقرات حاوب ، عزيزة على قلب العائلة كانها
جزء منها !

بيوت ثلاثة خاوية من المؤن ، الا بقايا ما يتمنون . من ارزاقهم : قليل من
الزيت والزيتون والتين الناشف والزبيب والكشك لا يشبع عائلة واحدة ايام الشتاء .
ولكن اشقاء بونا الياس ارادوا ان يتضامنوا وياً كلوا كلهم في بيت واحد ،
عند بوجريس ، لعل في ذلك بركة في المؤن ، ونقص في المصاريف فجمعوا كل
ما عندهم من بقايا المؤن عند ام جريس وبدأوا بتقنين معاشهم .

لم يكن من شغل في المنطقة كلها الا في قطع الحطب ونقله الى بيوت لحساب الدولة .
ولكن بوسعيد خسر بغله ولم يبق عنده الا الحمار ، فراح مع ابنه سعيد يقلعون
« القرامي » ويفردون بعض اشجار من احراش الصنوبر والسنديان دون ان يعلم
القسيس وبوجريس . ولم يكونا يربحان ، هما الاثنان ، ما يشبع اكثر من شخصيهما
فقط . ومن يطعم ام سعيد وشقيقة سعيد ، وشقيقه الصغير ؟

وبوجريس فقد ايضاً فدانته . وزهد النير والصمد والمساس وكل ادوات
الفلاحة ، فتراها مرمية في القبو ، لا احد يسأل عنها بعد عزها التالد .

ولكن هناك ما هو اهم من ادوات الفلاحة : ماذا يشتغل بوجريس الان .
هو رجل لم يتعاط الا الفلاحة من اول عمره ، لا يفهم الا لغة الارض وحالتها بالنسبة
للعدان الملائم لحزنها والضيعة كلها تستشير في ذلك . فاذا قال : « الارض بتطلع
اليوم » حرث الجميع ولو كانت الارض صلبة كالخجر . واذا قالوا : « الارض وحل »
احجم الجميع عن الفلاحة . وهو يقدر ان يعين لكل شخص من الضيعة ابن يجب
ان يفلح ، اذ هو دارس كل شبر من اراضي القرية كلها . اما الآن فهو ضائع ، لا

يعلم ماذا يفعل . ارزاقه كلها ما تزال بدون « كونه » لم يتمكن من شق الارض بعد لتقدر ان تحزن مونة الصيف . والارض البور لا تقدر ان تحزن ، بل تبخر اكثر المياه قبل ان تنزل الى جوفها .

يدور بوجريس في كرومه المنتظرة « سكته » وينظر اليها نظرة الاب الى ابنا . جاعين لا يملك قوتهم ، وعراة يعجز عن كسوتهم . هو ينتقل كالجنون من مكان الى مكان ، لا يعلم كيف يتدبر . ولم يكن يونا الياس اقل هما من شقيقه بوجريس . بل كان يحمل هموم البيوت الثلاثة بما فيها من ابنا . وارزاق على رأسه . هو يرى العائلة تضعف من يوم الى يوم ، هو يرى شبح الضيق يدخل بيتاً لم يعرف العوز منذ احيال ، هو لم يزرع بعد ولم يبق من وقت الزراعة الا ايام معدودة . وقد لاحظ منذ الان ان شغل شقيقه بوسعيد وبوموسى مع اولادهما لا يكفي نصف العائلة .

هموم وهواجس تتناهب راحة هذا الراهب القديس وتمد امام فكره افاقاً قائمة لا تجلو بساطته شيئاً من معانيها واسرارها .



قبل ان ينتهي وقت الزرع عاد جريس ذات مساء الى البيت وقد اجتمعت العائلة على العشاء :

— رأيت عمي بوطنوس في الطريق ، فقال انه مستعد ان يعطينا فداناً للزرع اراضينا اذا اردنا . ويجب ان نجاوبه هذا المساء ، لان غيرنا من اقاربه يريد الفدان اذا كنا لا نزيده . وقد افهمني انه لا يطلب اجرة منا .

فساد الصمت على الجميع ، كانهم فوجئوا بسؤال كانوا ظنوه قد تلاشى بمصادرة كل الابقار العاملة . ولكن بوطنوس لم يكن لينسى هذه العائلة العديدة التي تمت اليه بنسب قريب ، وهو يعلم شدة تعلقها بالارض والاشجار وحرصها على كل غرسة كانها ولد نازل عن قلبها . لذلك قدر وهو فطن وقوي الملاحظة ، ان اقاربه سيحتجون بعدم وجود فدان للفلاحة فيهملون الزرع وتسمي حالتهم تعسة ، فشاء ان يعمل واجبه الاخير نحوهم وهو تقديم فدانهم لهم مجاناً ليزرعوا اراضيهم .

— ما رأيك يا عمي ، قال جريس لبونا الياس ، ان نزرع عواد التوت ونحافظ على « النقبات » لانها ما تزال في اول طلعتها ، والزيتون الكبير لا اظن القمح ينجح فيه ، لان الظل الدائم يمنع الزرع عن النمو . اما التوت ، كما يقول عمنا بوطنوس ، لا اظنه يتأثر من زرع سنة واحدة . والسنة القادمة الله يدبرها .

فهرز بو جريس رأسه هزات بطيئة وتنهذ متحسراً وقال :

« اتعلم ، يا جريس ؛ ماذا تمثل هذه التوتات الكبيرة ! انها تصيب جدك بركات ، ابي جدك الخوري الياس ، وهو الذي طعمها واحدة واحدة ، وهي آثار حبه لنا وتعبه علينا وبركته الاخيرة في بيتنا وارزاقنا ، انت بفعلك هذا كانك تأخذ رسمه وتزقه بيدبك ! واين الرسم الجامد من هذه التوتات التي تحمل روحه كلها حية ، ناطقة : تنطق بحنانه وعطفه وكده من اجل ابنائه واحفاده ! انا لا اعلم شيئاً ! انا ليس لي رأي ! افعلوا ما تشاؤون ! فقط لا تدعوني ارى بعيني . قررُوا كل شيء في غيابي . »

ونفض مسرعاً الى الحارة المجاورة ، بعد ان قال « تصبحون على خير » . فناداه القسيس ليرجع فلم يرد ان يسمع بل كان يتشم وهو ذاهب :

— « عين لا تقشع قلب لا يوجع » اسمعوا ابوطنوس وخربوا بسنة او سنتين عذاب خمسين سنة ! بوطنوس يعرف قيمة الرزق ؟ ! اي متى حمل منجلاً في يده ؟ من ثلاثين سنة ونحن نبق الدم كل يوم ! أيرى الانسان ولده ثم يذبحه بيده ؟ والله لا اعلم ! ! »

— لو كنت علمت ان ابي يتأثر هكذا لما كنت تكلمت ، قال جريس .

— طبعاً يتأثر ، قال القسيس بحزن وكآبة .

« ان هذا الرجل ، يا ابني ، لم يعرف الا البقرات وادوات الفلاحة وهذه الارزاق منذ هو يفوق على نفسه هذه الاشياء . قد اختلطت بحياته اليومية واكتسبت قسماً كبيراً من عواطفه ، تقاسمكم قلبه وحبه وحنانه . هي مملكته ، وهو يراها تسقط الآن . الولد يا ابني تربيته ثلاث او اربع سنوات ، ثم يبدأ هو بخدمتك ومساعدتك ، اما هذه الشجرة فهي تفرض الالتصاق بهما دائماً وابدأ ، لذلك هي

تسلبك عطفك بدون ان تحس . خصوصاً وكل فلاح يا جريس له قطعة يفضلها !
اني اشتاق الى البستان كما اشتاق اليكم اوانت ضربت له على الوتر الحساس ! ابوك
يجب التوت اكثر من كل شيء . وجئت انت تقترح زرع التوت . تصور انك
تقترح علي زرع البستان ، افضل الموت على زرع البستان . لا ترعل يا ابني اذا قلت
لك اني احب بستانى بقدر ما احبك انت واخوتك ! »

— هذا صحيح يا عمي ، ولكن ما العمل ! اننا في خطر الجوع ، نحن عيلة كبيرة ،
نحن خمسة عشر نفساً ، وقد بدأنا نحس بالحاجة ونحن في اوائل الشتاء ، فما تكون
حالتنا اذا كان موسم الحرير كالسنة الماضية واسوأ ؟ ! ما تكون حالتنا في الشتاء
المقبل ؟ انتزع كغيرنا الى السهل ؟ »

هذه فكرتي ، قال بو سعيد ، انا ذاهب آخر هذا الاسبوع مع سعيد ،
واذا وجدنا شغلاً هناك سنعود ونأخذ ام سعيد وندمج ونجلا .
— يصعب علي ان نتفرق يا بو سعيد ، ولكن لا بأس اذا جربت هذه الرحلة
انت وسعيد اولاً ، قال القسيس منغمماً .

— ونحن هنا يا عمي ، انا واني وبوموسى نشتغل البعض في سياسة املاكنا
والآخرون في قطع الخطب بالاجرة وفي تقليع القرامي ، وفي تفرييد احراشنا .
خل ابي يعتني بالارزاق مع عمي بو موسى وانا واولاد عمي ندبر الاشغال الاخرى .
ولنفكر مع ذلك بمسألة الزرع سريعاً قبل ان يفوت الاوان .

واستعرض القسيس كل العواد والكروم ، فرت في مخيلته كما تمر في نفس
المتطوف المتعبد صور الجنة الخالدة . واعاد استعراضها مرة بعد مرة ، يريد ان
يصدر حكم الزرع على قطعة منها فعانقها قلبه متساوية ، كما يتساوى الاطفال في
قلب امهم .

— « سأفكر بالامر في هذا الليل يا جريس ، وارى ما يلهمني الله ، قال
القسيس بتلبيك ، اغدوا انتم الى شغلكم واتركوا هذه المسألة لي ولابيك . »
— « هذا احسن رأي ، قال بوموسى ، فلنسرب نحن يا بو سعيد ، ما صبح الا
فتح ! تصبحون على خير ! »

وانصرف الجميع الى النوم . لم يبق الا بونا الياس وحده ، مطرقاً متأملاً .
 — « الناس يتفلكون كثيراً ، ويخافون ان يموتوا من الجوع ، قال بونا الياس
 في نفسه ، فينسون كل ماضيهم ويندفعون مع القال والقليل عوضاً عن ان يتكلموا
 على الله ويتابعوا اعمالهم . هل يمكن ان ينقطع القمح ؟ وان يموت موسم الحرير ؟
 وهل يمكن ان تترك الدولة الناس يموتون ؟ واذا نستنا الدولة أينسانا سيدنا البطرك ؟
 لو كانت المجاعة ممكنة لكان صدر منشور الى الرعايا . انحكم على ارزاقنا بالموت
 لان ابن عمنا بوطنوس يرى ذلك ؟ ان بوطنوس لا يشفق على الرزق ، لانه لم يتعب
 عليه ! هو كالمرأة التي جاءت تحتكم الى سليمان لتقاسم الام طفلها وفلذة كبدها ! . .
 من يدري ان الحرب لا تنتهي هذا الشتاء ؟ . . . هل الموت نعس ؟ نحن عشرة
 رجال ، كلنا شعيلة ! أيمن ان غوت جوعاً من اول سنة ضيق ؟ . . . »
 وغفا القسيس مكانه ، على الديوان الواطي ، في حارة السهرة ، ملتقاً بلا وعي
 بعباءته وبغطاء من الصوف المحصي ، كان مرمياً الى جانبه .

XV

الشتاء بطيء ، بليد ، قاس ! يحس به الناس كإفعى ملتفة على اجسامهم ، منتظرة
 تقطع انفسهم ! الهول مخيم في كل بيت ، والجوع منشأ انياباً لا تنثني آلامها دقيقة
 واحدة ، والزمان يتباطأ ويتوآد كأنه متأمر مع الاحداث الظالمة على الفتك
 والافناء ! تتأني الشمس قبل ان تستسلم الى البحر كأنها تجافيه بعد وصال الدهور
 السحيقة ، ويتمهل بزوغ الفجر كأن العتمة تطيع الظالمين ، وتشير بالتمهل !
 والجوع وبأ جائع يدور على الضحايا وينساب كالإفعى الى الفرائس . يتغفل
 في انوار الصباح فيغشى الطبيعة والبشر ، ويندس في سدل الظلام فيجمل الموت
 ليلاً الى البيوت والكهوف !
 وجحافل الموت قطوف نهارة وتفتك بالعزل الضعفاء ، وتعرس ليلاً فتزود

البيوت الفقيرة حيث الامهات والاطفال ينتظرون قوتاً ! هذه عذراء ريفية ، هربت
من بيتها كأنها تهرب من الموت ، وصلت الى الطريق العامة متلاشية القوى .
فارتقت الى جانب الطريق ، تستعيد قواها من الشمس ، والشمس اشرفت على وجهها
الشاحب كأنها تريد ان تجلو في ذلك المحيأ خطوط الجبال المتلاشية بسرعة كما
تتلاشى انوار الشمس على افق الغروب ! ولا تمضي دقائق معدودة حتى تنتفض
العذراء تريد الهرب ! احست بشبح الموت يفاجئها غدراً ! تريد التستر في بيتها خوف
ان تعبت الرياح بثوبها بعد ان تقف انفاسها ، تريد ان تحافظ على نفسها حتى بعد
الممات ، ولكنها لا تقف مترنحة على قدميها حتى تهوي في القناة الضيقة ، رأسها يتحرك
في الاحوال ورجلاها تنتفضان على الطريق ، تلفظ انفاسها الاخيرة والهواء يرفع
ثوبها عن فخذيها العاريين !

واخذت الشمس خماراً من الغيوم تحجب به انظارها عن مظالم البشر ، وتغمر
الارض هنيئة بشبه دغشة حزينة ، حداداً على عذراء الريف ، تلك التي لم تسلم جسدها
للاقدار الا عندما سلّمت نفسها للازل . ثم بدأت تهطل السماء قطراً متفرقة ،
بطيئة كأنها دموع المجهول قبلل جسداً بارداً لم تدمع عليه عين بشر .
في كل يوم فاجعة في مرياع ، وقد تعود الناس الفواجع وتقسّت قلوبهم
عليها حتى كادوا لا يحسون بالآلام .

والثنين يطلب كل يوم ضحايا ، ودور تقديم القرابين ، على مذبح الموت
العابق ابدأ ببخور الاجسام المنتنة ، يصل الى كل بيت . فائدة الفناء لا ينقطع
عنها أكلة الانفس النهمون .

نهار امس حدثت فاجعة سلمى المروعة ! :

في احد بيوت القرية المنفردة الى جهة البحر ، ثملت البارحة على مسرح القرية ،
وعلى مشهد من بونا الياس المسكين ، افطع وارعب رواية يمكن ان تراها عين بشر
في هذه الحرب الفتاكة . بينا كان بونا الياس ذاهباً الى الحرش ليقطع بعض
اغصان السنديان للعترة سمع بكاء طفل في بيت قريب من الطريق . ولما صار قبالة
البيت تماماً احس ان هناك صراخ طفل متألم متوجع لا يقف ولا بهادن ، بل يشتد

ويسري مزعجاً مؤلماً صرخة بعد صرخة . تقدم القسيس بعض فشحات ليتابع طريقه ، ولكن الصراخ صار عويلاً يزعج القلب ، ويفتت الكبد . وقف البونا من جديد ، يصغي بقلق وخوف ف شعر ان في عويل الطفل استغاثة خرساء متألمة ، واسرع الخطى نحو البيت . ولكن الباب مغلق ادق دقات سريعة وانتظر برهة فلم يفتح له احد . اعاد الدق بقوة وسرعة وانتظر ولكن عبثاً . تطلع الى كل الجهات فلم يجد له جاراً ولا ماراً معيناً ! جرب ان يخلع الباب فلم تمكنه قواه الخائرة ! صاح فلم يسمع احد صوته . ولكن الطفل المنتحب وقف عن تحييه ليصغي ، ثم عاد يضاعف بنكاهه وعويله كأنه في خطر الموت ولا يقوى على الكلام والاستغاثة الصريحة !

دار بونا الياس حول البيت مفتشاً عن وسيلة توصله الى الطفل ليرى سر انتحابه فلم يجد شيئاً . ولكنه رأى شجرة قرب الحائط ، توصله الى نافذة لم يحكم غلقها جيداً ، فاستجمع القسيس كل ما تبقى في جسمه من قوة ، لان صراخ الطفل لم يسمح له بالتزيت ، اذ لم يعد العويل يضرب في اذنيه بل يخزّه بابر في قلبه . تسلق الشجرة مستعيناً بالحائط ودخل البيت من النافذة ، فلم ير اولا بوضوح لان نور الشمس لم يكن داخلاً الا من شقوق الابواب والنوافذ الصغيرة ، ولكنه تقدم من الطفل بسرعة ويا لهول المشهد ! ام مسطحة في كومة من القش والقطن ، عليها اطمار بالية ، عارية الصدر والساقين ، لم يبق من جسدها الا عظام نحيلة وجلد أربد قاتم ، ولم يبق من حياها الا عيانان مغمضتان ، تغرقان في الحدقتين الى القعر ، ولم يبق من صدرها وتدييها الا جلدتان رخوتان لولا الفريزة لما استدل الطفل انها ثديا امه . اما الطفل فيقبض على الثديين بكلتا يديه ، فيمص من الواحد مصات سريعة كأنها نهش خفيف ، ثم يتركه ويفغم غفمة أليمة موجعة ، ويقبض على الثدي الاخر بكلتا يديه ولا يلبث ان يرفع فمه ويعود الى الغفمة . اما الام فصقيع الموت يهيمن على مناطق جسدها منذ ساعات عديدة والطفل لا يجد في الثدي الا طعم الموت البارد القاسي !

يا المشهد الخفيف بآلمه ، الممزق اوصال القلب برعبه ! انقض بونا الياس ينتزع

الطفل عن مائدة الموت الخفيفة ويهرب به الى بيت فيه ناس احياء يغذونه ولو اياماً قليلة لينسى طعم الموت الذي عانقه على صدر امه . وبعد ان سلم الطفل الى اقرب بيت فيه احياء ، اسرع الى بيته واخذ شحيمته وعاد الى بيت الام الميتة فسجد امام كومة القش والقطن وصلى صلاته ، ثم فتش عن شخص يستعين به ليواري الجثة التراب فلم يجد الا ام طنوس .

حاول الاثنان ان يحفرا حفرة يستران فيها جسد المرأة الشبه عار فخانتهم القوي ، لذلك عاد بونا الياس فأحكم غلق الباب كما كان ونزل من حيث صعد !

وقد جاء اليوم دور احفاد الخوري الياس ليساهموا في ولائم الموت الدافئة ! هناك ، هناك ، على المطل كان في هذا الليل ما تم لمير البشر في ازمائهم مثيلاً لمشهده . هناك تحت الخروبة الكبيرة ، قرب الغروب ، تحت امطار تهطل حيناً وتنقطع حيناً آخر ، وفي اعصار يجن مرة ويهدأ آنساً ، بين قطيع من الاشجار المرتعشة والمولولة مع الرياح ، سقط رجل مغمياً عليه ، يصارع الضعف بقوى النفس الجبلية الصلبة ، ويغالب الموت نجبه للحياة ، ويقبض على البقاء ببقايا العزم المبعثرة في ارجاء جسده . ذاك الرجل هو بو موسى ، شقيق بونا الياس !

منذ الصباح كان يعمل في الكروم وحده ، ينكش بمعوله الثقيل حول الاشجار لتتسرب ما يروها في الصيف ، وهو يقوم بهذا الشغل الطويل المتعب لان الدولة صادرت الابقار كلها ، فتعسرت الفلاحة وصارت الكروم في خطر العطش ايام الصيف .

جاء في الصباح يحمل في فوطته الكبيرة رغيفاً من الشعير الاسود ، فيها قليل من المهندبة المقلدة بالزيت ، فأكلها عند الساعة العاشرة وبقي يشتغل طيلة النهار مقاوماً الجوع بصلاية يديه ، ونشاط ارادته ، وتصميمه على نكش عدد معين من الاشجار . وقد كان سائراً في عمله بقوة اللاوعي والاستمرار ، فجالد الى الغروب واحس احس اخيراً بالتعب يثقل ساعديه ، وبالضعف يدب في ركبتيه ، فجلس تحت الخروبة يستعيد نشاطه . وكان قواه بلغت حدود عزمها وزخمها ، فما ارتقى على الارض حتى بدأ وعيه يتلاشى . هم بالوقوف ليسير نحو السقيفة فيشرب ، ولكن

خائنه ركبته فانطرح على الارض جامعاً ركبتيه ويديه الى بطنه ، شلواً عديم الحراك ، لا يعلم الناظر اليه ميتاً كان ام حياً !

سقط الفلاح المتهالك على الارض ، يسفح على صدرها آخر انفاسه ، مع سقوط العتمة ، فأخذ المساء البارد يحوك حوله كفناً من الظلام المصقع . وجاءت عاصفة المساء ، تلك التي تسبق ليالي الشتاء الممطرة ، الباردة ، العاصفة ، فاجتاحت الاشجار اعاصير جامحة تصغر وتعول وتولول كأنها جنٌ من الشكالى قمن يندبن في ذاك الليل البهيم .

وفي البيت كانت بقايا العيلة في انتظاره حول موقدة لم يبق من ايام الخير سالماً غيرها . جلس القسيس صامتاً ، متأملاً في النار العامرة ، والى جانبه بوجريس يتكئ الى مسند عتيق يهوم مستسلماً للنعاس كأنه يخاف اليقظة ويرتاح الى الذهول . ريم وحنة مشغولتان بنجدة من طحين الشعير الاسود . فقد جبلتا الطحين كما تجبل النخالة للدجاج ، وقرصته كما كانت تقرص الكبة ، رزق الله على ايامها البيض ، وهما تجبرانه على تشكة صغيرة رُكبت فوق النار كما كان يُرْكَب المصع لشوي الكبة ! وام جريس تحرك قدراً ، فيها كمشة من العدس وكثير من الماء والزيت ، والملح هو ماء مسروق من البحر !

صمت كأنه صمت القبور . شاشة سيلفانية خرساء ، تمر عليها حركات بطيئة ، كسولة واين بقية العيلة ؟ لا احد يعلم ! منذ شهر اخذ بوسعيد امرأته واولاده وذهب الى السهول . حمل ما خف من رحاله على حماله الصغير وتوجه شطر زحلة . وبعد اسبوعين لحق به موسى وبطرس ولدا اخيه والى الآن لم يسمع عن الجميع خبر . اما جريس وحنة فلم يعودا بعد من قطع الخطب على حساب الدولة .

— حنة ! خذي صحناً من الشوربا وهذه الرغيف الى امرأة عمك ام موسى ، وتفقدتها ، قالت ام جريس ، ثم التفتت الى بوجريس وقالت : « يا بوجريس اخوك تعوّق كثيراً في الكرم ! عتمت ! والمطر نازل بشدة ! ومن عادته انه لا يتأخر ، خصوصاً وام موسى ساخنه ! . . . يا ولدي ! اين يكون الآن جريس وحنة بهذا الهمد ؟ ! . . . انهذا بوحنا واسأله اذا كان اخوك لا طياً عنده ، والا يكون باقياً في

المطل ! هو على رغيف شعير اسود من الصبح !

غاب بو جريس هنيئة وعاد يقول ان بوحنا لم ير اخاه ابداً . فانتبه القسيس مذعوراً وقال : لم يره ؟ يا الله ! ماذا اصابه اذا ! لا يمكن ان يكون الا عنده او في الكرم ! زيتي الفانوس حالا يا مريم !

وبينما هم في حيرة وذعر دخل جريس وحنا مرتخين حاملين كل فأسه على كتفه وجراية من الخبز تحت ثيابه .

- عمك بوموسي لم يرجع بعد من الكرم ، يا جريس ، حالا ، يا ابني اذهب مع اخيك حنا الى « المطل » ! خذ معك جراية وابريقاً ! من يعلم ربنا هو نائم هناك ، مقصر من الجوع !

- « خذ الفانوس وامش قدامي يا حنا » وبدون ان يزيد كلمة ، اخذ الابريق من يد امه وعصاه من وراء الباب ومشى ! ولما صار خارج البيت نادى جاره سمعان الذي كان وصل معه في تلك البرهة من قطع الخطب وقال له : « تعال حالا ! البس عباثك وخذ عصاتك ايضاً . »

لم يكن جريس قد فقد كثيراً من عزمه بعد . بل كان يغذي قوته المشهورة في القرية والجوار من متانة جسمه ، وعزم عضلاقه ، وغض شبابه . فقد كان احياناً يشتغل النهار كله بقطع الخطب ، على رغيف من الشعير ، ليبقي الجراية لامه وشقيقته . وامه كانت تأبى ان تذوق ذلك الخبز بل تبقيه لشقيقته ولاخيه حنا . وصل الشباب الثلاثة الى المطل فتوجهوا تَوّاً الى السقيفة وتوجس جريس شراً عندما رأى الباب مفتوحاً .

- اين كان يشتغل ؟ ماذا حل به ؟ ! كان ينكش تحت ، في اول الكرم . بدون شئ ! الحقني ! امشي قدامي يا حنا ! اسرع ما زالت صاحبة قليلاً ! وهروا ! الثلاثة تروا الى الكرم . وما اطلوا على الجبل الاخير وضرب نور الفانوس حيث تهيم دوحه الخروب العظيمة ، حتى صاح حنا : « هنا ! هنا ! يا جريس ! عمي واقع تحت الخروبة ! اسرع ! »

وما هي ثانية حتى كان الثلاثة جاثين على ركبة ونصف ، يهزون الجسم بعنف

وذعر ، وجريس يرفع الرأس على ذراعه ويصيح : « عمي ! عمي ! » ولكن عمه
جثة هامدة .

— انهض قبالي ياسمعان لنحمله الى السقيفة ! لا شك انه وقع من الحروبلة !
وضعه في السقيفة على طراحة عتيقة وغطوه بقطعة من بلاس ثم تزعوا عباءاتهم
وزادوا غطاءه .

— شعل النار يا حنا ، روح ! قال جريس وهو يفرك يدي عمه . « وانت
ياسمعان انزع مداسه وافرك رجله حالا . لا يزال فيه روح ! .. عجل بالنار
يا حنا والآ راح من ايدينا . لحقناه على آخر رمق ! نبضه يدق ! لا تخافوا ! »
لم تمض دقائق قليلة حتى كانت النيران تحمي السقيفة فينبدد البعد المحرم ، ولكن
حرارة الحياة لا تزال ضئيلة في الجسم المسطح بدون حراك .

— الا تشعر ان الحرارة تدب في جسمه ، ياسمعان ، قال جريس وهو يتابع
فرك اليدين كما يتابع رفيقه فرك الرجلين

— بلى ، ولكن قليلاً ! اغل ماء في هذه التئكة يا حنا ، لنسقه ماء ساخناً .

— ليس الاوفق أن نحملة الى البيت ؟ قال حنا .

— ماذا تقول ؟ لا يمكن ان يتحرك من هنا ابداً ! حتى الآن لا نعلم اذا كان
ميتاً ام حياً ! ضوء هذا السراج الصغير وخذ الفانوس وارجع الى البيت اعطهم علماً !
قل لهم انه حي ولكن فهم عمي القسيس على حدة ليأتي بشحيمته وهات لنا معك
قليلاً من النبيذ ، ولكن ليأت عمي قبل الجميع ، اركض !

مضت ساعة والنار في الكهف تلاحق السقف ، وقد تعب الرجلان من الفرك
ولم يعد بو موسى الى رشده ، ولم يشعرا ان الحركة تعود الى اعضائه . شي . من
الحرارة فقط يتسرب الى جسمه ، ولكن لا وعي ولا حراك !

« لنسترح قليلاً ياسمعان ، والنار الآن تكفي لتعيد اليه الحرارة . . . خذ يده
وقل لي الا تحس نبضه يدق ؟ »

— بلى ! بلى ! لا تحف ، فيه حياة !



وعادت عاصفة الليل الى الهبوب . فالدنيا لم ترتو بعد من همر وتدفق ، وجنون
الرياح المضوبة لم يأخذ حده . ولم تكن فترة السكون التي جاءت بعد المساء الا
هنيئة صمت على شهيد الارض المجندل في حضن الطبيعة ! ولو ادركت الطبيعة ان
الدفء يحويه ، وان الشمس تطيل ارماقه ، لتمردت على نوايمسها واسدلت على الجسم
الواهي غشاء من حرارة الصيف الوعلت الطبيعة بعض ما لم بابنها المنكب على
ادعائها ، لأن موت الشتاء ان يتوارى كلمح البصر ، ولتمحّضت بالصيف قبل اوانه
لتنفس بثاره اليانعة جسد ابنها البار الساقط جوعاً في حضنها .

لو فهمت الاشجار ما حدث بين ظهرائها ، وعلمت ان احد آباءها فقد حسه
ودخل في عالم الذهول مثلها ، لشارت على مملكتها الذاهلة وطلبت اليقظة والحركة
لتنقذ من اعطاها ذاتها : فتلغلل اصولها في اعماق امها واطلق اغصانها لتتلاطم انوار
الشمس ومتعها بفضيلة الكرم والسخاء ! ولو ادركت الارض ان من ارتقى على
صدرها لم يكن مستريحاً ، مجدداً قواه ، لو احست انه يتلاشى في حبها وخدمتها ،
لغشت في احشائها العميقة عن حمم لهاية محرقة وقذفت بها وجوه الظالمين في العالم !
ولكن انى للطبيعة ان تعي وتقيم ! هي تهب وتعدق ، انما هي لم تعط سلطانا على
الاشرار والاشقياء !

شهيد الارض ساج على سرير الكهف الترابي الوداع ! تسجّيه الاطمار
الحقيرة ، ولا تقدم له امه الارض الا عيدانها اليابسة ، ناراً مدفنة تحاول تشجيع بقايا
الارماق الخائرة في جسده !

الطبيعة بكل عناصرها احست بالجريرة الفظيعة تمثل في ارجائها ! لذلك اطلقت
عناصر ثورتها وغضبها من جديد . وثبتت من الابعاد ارياح كانها مسلحة بالبرائن ،
فاخذتها الاشجار تنتف بها اوراقها وغصونها كانها امهات وحشية في ماتم ابنائها
وترددت اصدااء الرعود كانها تهديد الوجود لاجزائه المحرمة ، او قهقهات الالباسة
لانتصار البطل على الحق . وانقضت الامطار جيوشاً جرارة لا تنقطع ، تريد ان
تجرف كل شيء الى العدم ، كأن القوة العليا لم تر آلم واحزن من مشهد هذا التقبي
الناسك ، يقف حياته لجمال الارض وازدهارها وسخائها ، فيقتله الناس برغيف

من الشعير الاسود اليابس . تهب يدها الزيت والدبس والحمر ، فيقدم له البشر مقابض وحشية تقطع انفاسه وترديه قتيلا على صدر امه !

وصل حنا وخبر اهل البيت بما حدث لعمه . وأدب الصوت على الجيران والاقارب بل دق الجرس دقات حزن لتنهض القرية كلها . ولم تمض نصف ساعة حتى علم القرويون كلهم ان بو موسى سقط من الخروبة وانه باق في « المطل » بين ميت وحي . ولكن من يطلع برّاً بيته في هذه الليلة الخفيفة ؟ والناس انصاف اموات او اشباه احياء ، يتسكعون داخل بيوتهم وينظرون وهم قابعون في زواياهم ، يحذفون في مشيهم حذفا في رابعة النهار فكيف يخرجون من بيوتهم في هذا الليل الهائل . وبعد ساعة من ذبوع الخبز لم يجتمع في بيت احفاد الحوري الياس الا بو طنوس وابنه طنوس وبختار القوية ، وبعض انفار آخوين لا تجرهم ارجلهم الى « المطل » في ايلة كهذه .

اما بونا الياس فهو في الطريق ، يلتف بجبته العتيقة ، ويحمل شحيمته في جيبه وفي الاخرى قنينة صغيرة من النبيذ ، يتلّسّ طريقه ويستدل عليه بالعزيزة والاستمرار ، ويحاكي نفسه كمنجنون تائه في البراري :

- بو موسى ! كيف تركناك وحدك كل هذا النهار ! كيف اهملناك هذا الاهمال . . .
يا حبيبي ماذا جرى لك ؟ . . . ماذا طعلت تعمل في الخروبة ؟ والايام ليست ايام خروب ! . . .
ام ان قواك خارت ولم تحملك رجلاك الى البيت ؟ . . . يا رب نجنا من هذه الليلة ، يا رب لا تشمت الناس بنا ! وكان كأنه معصوب العينين ، لا يعلم اين وصل تماماً ، ولكنه يقدر انه يسير بين اشجار الكرم الذي قطع رجله على دربه . وهو يحس حيطي الطريق حيناً ويعثر حيناً آخر فيمسح الوحل عن يديه بجبته ، والامطار تسقط بشدة واستمرار كأنها الميازيب الجارية ، والعنمة تتكاثف في طريق تراقفها الاشجار من الجانبين وتغطيها الاغصان الممتدة فوقها من الناحيتين .

« امراته راسية في فراشها ! . . . ولداه ! من يعلم اين هما الان ! . . . يا الله ما هذه المصيبة ؟ يا الله دبر امرنا ! . . . »

واطل بونا الياس من حوش اليرز على ضوء سقيفة « المطل » فرأى النار

مشتعلة ولم يَرَ حركة كثيرة فاطمان نوعاً وقدّر ان الناس يستدفنون . وبينما هو
مهلول يتمسك بصغار الاشجار ليتقي الوقوع ، دون ان ينجو من الشوك يهشم
ويدمي ساقيه ، اذا بفانوس حنا يضيء عليه ويقترب منه ، واذا بصوت بوطنوس
يرن باذن القسيس ويسمع طنوس يقول لابيه :

— طوّل بالك قليلاً لنرى ما حدث . وبعدئذ تلوم قدر ما تريد !

وما زال الضوء يتدنّى حتى لمح طنوس عمه القسيس فصاح مسرعاً نحوه :

— انت ما زلت هنا يا عمي المسكين ! لماذا سبقتنا ! انت تحمل ليالي مثل هذه ؟

ثم اخذ إبطه وماشاه ليقب عثراته وليسرعوا في مسيرهم .

اما بوطنوس فكان يتمم بصوت خافت :

سيموتون كلهم على هذه الطريق الملعونة ؟ الناس همهم حياتهم ، وهؤلاء لا

يهتمون الا بوصية الخوري الياس ! وهذه الوصية ستقضي عليهم !

وصل الوفد الى معبد الارض ، الى السقيفة الآوية كاهن الاشجار وادوات

عبادته ، وعند منتصف الليل . فاشار جريس على القادمين الا يزعجوا النائم بلبس

جسده او بالكلام .

« هو يتحرك قليلاً ولكنه لا يتكلم ولا يعي ما يقال على مسمعه . دعوه

مرتاحاً الان ! لقد اقبضناه بفرك يديه ورجليه نحو ساعتين حتى عادت اليه الحياة !

لا اظنه واقعاً من الخروبة ، بل قد حدث له عارض اثناء الشغل واغمي عليه ! »

جلس بوطنوس قرب النار يتدفأ ، وعيناه لا تفارق بوموسى الراقد ردة الموت .

لم يقل شيئاً ولكنه كان يهز برأسه متألماً ، ويتنهد آنأ بعد آن تنهيدات طويلة تقول كثيراً

لمن يفهم معانيها ، والقسيس كان يفهم انها مليشة باللوم والعتب والتأنيب . اما

الراهب القديس فقد سحب شحيمته من جيبيه ، ثم اخذ قنينة النبيذ من الجيب

الآخر ووضعها في طاقة صغيرة . فتقدم جريس اذ ذاك واسر الى عمه بصوت متقطع

خافت : « امشحه حالا ، لا اظن ان الصباح يطلع عليه ! » فركع القسيس حالا

وتظاهر انه يتلو صلاة ، ولكنه في الحقيقة كان يقول المشحة الاخيرة فوق رأسه .

مضت نحو نصف ساعة وكاهن الله والارض راكع ، يقدم ، في معبد الارض ،

في مملكة النبات ، بعيداً عن الناس ، تلك النفس الطاهرة للقوة التي وضعتها بين اديم الارض وانوار الشمس ، ولم تنصفها من الانسان الظالم . ولم ينته القسيس من صلاته حتى ارتعش النائم ارتعاشة خفيفة وأخذ جسده يصقع صقيع الاموات !

XVI

لم يمض على موت بوموسى اسبوع واحد حتى ماتت ام موسى ايضاً . انها لم تتحمل ، وهي الخائرة القوى ، عبء الضربة القاضية : يموت زوجها هذه الميته المحزنة وولداها مشردان لا تعلم اين ، وهي واقعة في فراشها ، تمشي ببطء الى الموت ! ان الضربة اجهرت على بقية حياتها !

والقسيس المسكين امسى كالمجنون لا يعلم ما يفعل . العيلة تتلاشى وتتبعثر وهو لا يجد طريقاً للخلاص . الجوع يضعفهم والحلم يثقل كواهلهم والطريق طويلة مظلمة !

مر ثلاثة اسابيع على وفاة ام موسى ، ولم يعد احد من افراد العيلة المشردين في السهول ، ولم يزل القسيس واخوه بوجريس ضائعي الافكار من الضربة المزدوجة . كيف يقابلان ولدي المائتين ! ماذا يقولان لها !

ترأت لبوجريس نظرات الولدين الفائقين وهي تسأل : « ولماذا لم يمت الا والدانا ؟ .. ألم يذهبا ضحية اهمالكهم ؟ » وتمنى بوجريس لو يموت قبل ان يرى النظرات سائلة مشككة ، فاقدة ثقتها المولودة معها بالقسيس وبشخصه ! شاء بوجريس ان يموت ليهدن لولدي اخيه ان موت والديهما كان قضاء وقدراً لا اهمالاً ، وان ما يوجد من الاكل يوزع على جميع اهل البيت بالسواء . والقسيس كانت تثقل عليه الهموم من ساعة الى ساعة ، ويدين نفسه مرات كل يوم ويعتبرها المسؤولة عن كل ما يحدث . ولكن بونا الياس يحور كثيراً على نفسه ! كيف يجوز ان يكون مسؤولاً عن حالة لا طاقة له عليها . كان يعتمد على موسم القز فجات ظروف الحرب تقتله ! كان يعتمد على البقرات فجات الدولة تصادرها مع بغل اخيه بوسعيد . كان يعتمد شغل اولاد اخوته بالمياومة فامسى شغل الفاعل لا يطعمهم « وقعة » في

النهار ! حتى الارزاق لم تعد بالامكان ففأثت اغلالها ! أيكون بونا الياس مسؤولاً عن كل ذلك ؟ في الحقيقة لا ولكن في نظر بوطنوس نعم

يوم الاحد سحب القسيس رجله سحبا الى الكنيسة . واجتاز بيوت القرية المهجورة ، وروائح الموتى ، المقبورين قرب بيوتهم ، على وجه الارض تقريبا ، تلاءم الغشاء . وصغار الاولاد شاردون من بيوتهم ، بقوة الجوع . يفتشون عن قوت بين الاعشاب ، حول البيوت ، في المزابل ! حتى ان من لم يتعود هذه المشاهد يوماً بعد يوم يخيّل اليه انه في قرية اموات حركهم زلزال من اجدائهم فهاووا على الارض جائعين تأثمين ! ومن رق قلبه ورعفت عواطفه وعجز عن المعونة حجب عينيه عن النظر ، كي لا يجري حنان قتال من فؤاده ، وانصرف هارباً ، ضئيلاً حتى بالعاطفة ، لان جسده الواهي قد يسقط تحت امواج المحبة .

قطع بونا الياس طريقه المؤدية الى الكنيسة ولم ينظر الى احد ! ما عساه أن يفعل من اجل الجوع ، هذا الراهب الجائع ! لو كانت ايام الصيف ، ايام العنب والتين ، لقاد هذا الجيش المبعثر من الجوع الى البستان وسمح له بأن يأكل آخر خصلة ، وآخر تينة ناضجة ! ولكن الصيف بعيد ! بعيد ! وليس في وسع بونا الياس الا ان يصلي من اجل خلاص رعيته !

وصل الى الكنيسة بعد ان تفطر فؤاده مئة مرة ومرة من لمحات محزنة كان يغير الطريق ليهرب من قساوتها ، ولكنها كانت تنطبع بالبح البصر في اعماق نفسه . من يدق له الجرس !

دق الجرس ؟ لم يسمع في تلك الناحية منذ اسابيع ! لم تسمع الا دقات الحزن المتواترة ساعة بعد ساعة ! فالقرى المجاورة كلها في مأتم دائم ، كأن الناس على موعد في القبور !

قبل ان يأتي احد الى الكنيسة ، وصل بوطنوس معكراً على عصاه . وكان في وجهه خمد ، فالاخبار كثيرة في هذه الايام . بين مساء وصباح ، بين طيات الليل ، تحدث كل يوم اشياء مخيفة . امهات يهجرن رضعا هن ويهجن في الدنيا مفتشات عن القوت في كل مكان ، ان اخباراً من هذا النوع تلاءم الاسماع ،

ولكن بوطنوس لا يفكر بكل ذلك ، بل يفكر بطريقة ينقذ بها حياة القسيس
المسكين واهل بيته الباقين ، فهو يراهم سائرين الى القهراً حتماً اذا تركوا الى نفوسهم .
- انتظر المصلين يابونا الياس ! صباح الخير .

- اسعد الله صباحك يا عمي بوطنوس . ايجوز ان نبقى يوم الاحد بدون قداس ؟
- الله لا يحاسب في هذه الايام يابونا ! ان يأتي احد الى الكنيسة ! قد تأتي ام
طنوس وبو عبد الله وام يوسف والمختار . اتقدس لثلاثة اشخاص ؟ ٠٠٠ من يقدر ان
يجر رجلية الى الكنيسة ؟ ٠٠٠٠ على كل حال لننتظر بوهة من الزمن . اجلس هنا
لاحاكيك كلمتين ! ان حدث بوموسى ، يابونا الياس ، لا يذهب من بالي ابداً ايجوز
ان يموت جوعاً هذا المسكين بعد ان غذى الارزاق بلحم كتفيه ، وزهرة شبابه ؟
ايجوز يابونا الياس ان يتشرد اخوتك واولادهم بينما ارزاقكم كثيرة : يمكنكم
ان تبيعوا ، يمكنكم ان ترهنوا ، يمكنكم ان تستدينوا ، يمكنكم ان تفعلوا
اشياء كثيرة قبل ان تموتوا يا ابن عمي ! مانفع الرزق اذا شتم كلكم ؟

« لو كنت سمعت مني وزرعت العام الماضي لكنتم الآن بالف خير . ولكن
عنادكم ، وتمسككم بهذه الارض الغائبة سبباً لكم كل هذا التعدير .

- بحياتك ، يا عمي بوطنوس ، لاتهمني بامور انا برى . منها . هل الارزاق
تخصني انا لاتصرف بها كما اشاء ؟ الاتعلم انهم يقولون في داخلهم « يوم شغل من
يديه ولا عام من عمره » . انت تظن ان كلمتي مسموعة ؟ ! كلمتي مسموعة عندما
اشتغل وآمرهم بالشغل ، اما عندما اطلب زرع الرزقات ام رهنها ام بيعها ، فانك
تسمع منهم لهجة جديدة . خلتنا مستورين يا عمي بوطنوس ! أنا افعل ما تريد ، ولكن
أقنع بوجريس . لولاه اكثنا زرعتنا قسماً من الارزاق هذه السنة ٠٠٠٠ من جهة ثانية
من كان يعلم ان الحالة تصل الى هذه الحد ؟

- « اسمع يابونا الياس : هذا النهار سيمر « البيك » من هنا . وهو يدين
المنطقة كلها . اهل بيروت لا يسترهنون املاكاً في الجبل ، حتى ولا يسدينون الا
افراداً قليلين من اهل الجبل . اما « البيك » فيعطي الكل . هو يظلم بالفائدة .
ولكن ما العمل ؟ لا يوجد غيره ! واذا وجد فأظلم منه !

— كم تظن انه يعطينا على بساتين التوت ؟

— يعطيكم لا اقل من مثتي ليرة تركية على سنة ، وبعد السنة يغير الصك ويعدد الوقت سنة اخرى الى ان تنتهي الحرب .

— وكم تكون الفائدة . سأل بونا الياس وهو يهز رأسه بحزن .

— يعمل صكاً بثلاثمائة ايرة عثمانية ذهباً . طبعاً هو يظلم كما قالت امك ، ولكن متى انتهت الحرب الله يفرجها !

— يعني اذا لم ندفع له بعد سنة ، يغير الصك لسنة جديدة ويضيف خمسين بالمائة ، فيمسي علينا اربعاية وخمسون عثمانية ذهباً ؟

— هذا صحيح . ولكن ليس بهذا يجب ان نفكر الآن . بل بانقاذ ارواحنا من الموت ! لا يمكن ان تحصلوا على شروط ارحم ، كل المرابين اظلم من بعضهم ! ولا يوجد في هذه المنطقة كلها الا اثنان او ثلاثة يدينون !

— سوف اتكلم مع بو جريس وآتي لعندك اليوم . فاي فعلوا ما يشاؤون ، انا لا اقاوم ، انا لا اطلب شيئاً ، وعندما يستقلوني انصرف الى ديري . قد فكرت بذلك من ايام ولكن كيف اتركهم في هذه الايام اللعينة ، كيف اتركهم بعد هذه المصيبة ؟ !

— يجب ان تأتي اليّ قبل ان ير « البيك » والا تضطر ان تذهب الى ضيعته بعدئذ . سوف ير قبل الظهر .

« على فوقه : ام طنوس وصتني لارسل لها مريم اذا ذهبت لعندكم ، دعها تأت اذا ارادت ، الى اللقاء الآن ... »

— مع السلامة ، يا عمي بوطنوس ، اشكر عواطفك ، انت دائماً تشملنا بنظرك !
— يا ليتني اقدر ان انفعكم بشي . . . خبزنا اقل من كفاف يومنا يا بونا الياس
الله يساعدنا .



وانصرف بونا الياس بحسب ما تشتري مثلاً ليرة من الطحين في الوقت الحاضر ويفكر فيما اذا كان يكلم بو جريس في امر لن يسلم به .

« على كل حال ، قال القسيس في نفسه ، يجب ان ارفع المسؤولية عن ضميري . يجب ان اطلعه على ما قاله عمنا بوطنوس وليفعل هو ما يشاء . ان عيسلة بوطنوس مؤلفة من اربعة اشخاص ، والدولة لم تصادر فدانها ، وهو ميسور بما ارسله ولده له قبل وقوع الحرب . حتى خلال هذه الحرب جاءه منه دفعات عديدة . فاذا تدين مئة او مئتي ايرة يمكن ان تسعفه قليلاً ويمكن ان يدفعها حالاً بعد الحرب بما سيرسله له ولده . ولا شك ان البيك يهاوده بالفائدة اكثر منا . اما نحن فما عساه ان تفعل معنا مثلاً ، ورطل الطحين يساوي اثنتي عشر ايرة ، وعيلتنا تعد الآن ثلاثة عشر نفساً ؟ »

أنوق حالنا تحت خمماية ايرة ذهبية من الدين لنققات عشرة ايام ؟ وبعد العشرة ايام ماذا نأكل الا لشك ان بوجريس سيرفض وسيستعجن اقتراحي . لم يكن بوجريس ، في الآن الاخير ، يقوم بشغله كما كان من قبل . فبعد ان صادرت الدولة كل ابقاره العمالة شيع في المنطقة ان الدولة سترد الابقار لأصحابها فانتظر آملاً ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . ولما يش من اعادة فدانها العزيز عليه ، وفكر بشراء غيره ، كانت الابقار العمالة امست قليلة جداً ، ومهددة في كل حين بالمصادرة وكانت يده امست فارغة . لم يبق الا مهرومة ذهبية واحدة في صندوق ام جريس : هي الحيلة والفتيلة وقد بقي بوجريس مواظباً ، بالاول ، على العناية بادوات الفلاحة ، فلا يمضي اسبوع الا ويستعرضها في القبو واحدة واحدة ، ولكن حالته اليائسة بعد تشتت اهل بيته ، انسته كل شيء ، وجعلته مستأسماً الى الخمول والقنوط . هو قابع في بيته اكثر الاحيان ، يشقّف الحطب لاوقيد ، لم يبق الا الفأس سالمة من كل ادوات عمله ، واصبحت افكاره بعد ان رأى من الفواجع اليومية في قريته ، تتجه الى عالم بعيد .

كل ما بقي عنده من المواشي هي الجدية الصبحاء ، بنت المغازلية الهراء ، التي كانت تحلب رطلين واكثر ، وهي حبلى ستخلف في شباط ، بعد اسبوعين او ثلاثة . لقد بقاها بوجريس رغم الحاجة لبيعها ، اولا طعماً بجليها وثانياً حفظاً لنسل انهما المشهورة بجود ضرعها ، ومن ثم هو لا يقدر ان يعيش بدون سائمة ، هو يتسلّى بها .

يمرحا كل يوم ساعة في الصباح وساعة قرب الغروب وينظر في الوقت نفسه ، أرزاقه
من تعدي الناس في هذه الايام التي علمت الناس السرقة .

وصل بونا الياس الى البيت فوجد بوجريس يشعل النار وامرأة اخيه تنقي قليلاً
من الفصولية المسوسة لتطبخها شوربة ، وقد سمع امرأة اخيه تقول وهو داخل
في الباب :

اتظن اننا « نهدي » كثيراً في هذه الحالة ؟ اولادنا لا يأكلون ربع اكل .
يوفرون اللقمة عن فهم ليقوتونا بها . ولكنهم يضعفون من يوم الى يوم الصبيان
يوفرون للبنات ، والبنات يوفرن لنا ، واخيراً ؟

- اخيراً ؟! اذا بقيت الحالة على ماهي ، نحن سنموت والله يدبر امرهم ! هم
شباب وصبايا لا يغفلون بمعاشهم .

- ما هذا الاستسلام لليأس يا بوجريس ؟ هذا ليس شغل رجال ، ولا شغل
ارباب بيوت مثلكم هذا سلفي عاد من الكهنيسة

صباح الخير يا سلفي ، تفضل ، اسمع حديث اخيك !

- صباح الخير ! ماذا ؟ - ما جرى ؟ سمعت آخر الحديث .

- لفوت جوعاً والصنوبر عندنا يلاً الارض والسما ، لماذا لا تقطعون ؟

- ماذا تقوانين يا مرة ! قال بوجريس بجدة ، الدولة تقطع كل شيء . وتصادر
كل شيء . وتأخذ القنطار بنصف ليرة تركية ! لقد قطعت نصف الحرش ولم تدفع
شيئاً بعد . اولادنا يقطعون حرشنا بأيديهم ويقدمونه هدية للدولة ! يا الله ما هذا الظلم !
ما هذا الجور ! اتظنين الحق معك اذا كنا لا نحكي ، ولا نههم ؟ لنا الان خسون
ليرة على الدولة والى الان لم تدفع بارة ! ام ان المقاول قبض ولا يدفع من يعلم !
وماذا تقدر ان تفعل ! اقل اعترض يكون جزاؤه السجن او الموت ! اتركيننا
في همتنا يا ام جريس ! اطبخي طبختك ولا تحمري بالوجه !

- الان يا اخي كنت مع عمنا بوطنوس . وقد لامنا كثيراً على تهاملنا وتقاعدنا
عن تدبير امورنا قال بونا الياس .

- طبعاً لا تنتظر الا هذا من عمنا بوطنوس ! هو يقطع دائماً من جلد غيره !

- لا ! روث طبعك قليلاً ! بو طنوس يحبنا يا اخي ، وانت تعلم ذلك .
« قال لي ان الشيء الوحيد الذي تقدر ان تفعله الان هو ان نتدين على ارزاقنا
ويكون الدفوع بعد الحرب ، ما رأيك بذلك ؟ »

- هذا احسن رأي ، عجلوا بذلك قبل ان يذهب اولادنا من يدنا !
- يا الله ! يا الله ! وقعت البقرة كثرة سلاخوها ! . قال بو جريس نجح ،
فكروا ياناس قبل ان تحكموا وتلوموا وتظنوا اني غشيم انتظر اراء عمنا بو طنوس
والمختار لا تدبر . من يومين كلمني المختار بالشيء نفسه وقال لي ان البيك يدين
وان الشيخ بولس والشيخ حنا يدينان ايضاً . اتريدون ياناس ان نخسر كل املاكنا
لنعيش عشرة ايام زيادة ؟ قولوا لي ! . قل لي يا بونا الياس ! انت الذي
تأكل جسد الرب كل يوم ! اتريد ان نخسر اتعابنا ودم قلبنا نحن العشرة ، مع
بو موسى في تربته واتعاب ابينا وجدنا لنا كل عشرة ايام ثم غوت ؟ اذا كان
ضميرك يطاوعك بذلك انا افعل ما تريد ! ان ما يديننا اياه المرابون السلابون ،
السراقون ، لقاء رهن ارزاقنا كلها ، سيشتري لنا ، خمسة عشر رطلاً من
الطحين نتقوت بها عشرة ايام فقط : وهذا المال قد يصبح الف ليرة ذهبية بعد
الحرب ، سنضطر ان ندفعها او ان نخسر ارزاقنا كلها .

« لا ! انا افضل ان اموت . واذا مت مع اولادي فسأورث الكنيسة كل هذه
الارزاق ولا اعطيها لمراب نهأب .

« الا تعلمون ان هؤلاء اللصوص الثلاثة يملكون الان نصف ربيع ! وكل الذين
رهنوا املاكهم ماتوا !

« الله فقط يمكن ان يبقينا احياء يا بشر ، لا ورقات المرابين ولا الزرع ! ما
العمل اذا كانت السماء والارض تحاربان الناس ؟ صادروا مواشينا ، قتلوا مواشينا ،
قطعوا احراشنا ! ولو كنا زرعنا ، ربما يحصدون زرعنا ! فالذي يقطع احراشك
يحصد زرعك ، بدون شك ! اطلبوا من الله ان يقوي اولادنا ويعيد البعيدين
عنا ، واستسلموا للعناية فهي تدبر امورنا . واذا متنا فلنبتق شيئاً لمن يبقى من
اولادنا . انفعل كافيلا ؟ ان من يأكل ميراث اولاده كمن يأكل اولاده ! عندما

غوت يفعل ابناؤنا ما يشاؤون !

سكتت ام جويس ولم ترد كلمة . شعرت كم يتألم زوجها ولم يكبت من الآلام والهموم في قلبه . والقسيس اقتنع بصحة ما قال اخوه . ولم يقدر ان يبدي اي رأي جديد . بل قال لامرأة اخيه : « ام طنوس تريد ان تذهب مريم لعندها لا اعلم ما تريد منها . هكذا قال لي بوطنوس . »
- اظن اني فهمت ما تريد امرأة عمنا ، سأرسلها بعد الظهور .

XVII

البؤس منتشر في الارياض الجبلية كانه يلزم الاثير ويدخل مع الانفاس . قل ان ينجو بيت من ظله الثقيل على الصدور . فهو يدب الى الاحياء في بيوتهم كما تدب الرطوبة الى الاموات في قبورهم ! وقد حوّل البيوت الى اجداث ، اذا تحرك فيها الناس كالاشباح ، فليسيروا ببطء . قاس الى الموت المحتم !
والناس انحط بعضهم الى حالة كانها الدهول الابله ، لا يعون ولا يفعلون شيئاً ، بل تقذفهم الى هنا وهناك ترعات غريزية تغلق عن القوت باللاوعي الخامل الغافل وبعضهم وأد عنده الجوع نوعاً من القساوة الكلبة ، الضارية ، يتهاك على القوت منتزعا ، ناهبا ، سالباً ، ولو كان القوت في حلق رضيع جائع ! فالام تلاشت من قلبها الامومة المقدسة ، فهي تنظر بشراسة الى رضيعها وتود لو تقتص هي نفسها حليب ثديها وتعيش ! والاب اندثر من رجواته الابوة والمرؤة : فهو يلتمس كالذئب الكاسر ما بين يديه من كسر يابسة ، عندما يرى طفله اتياً نحوه .

الحب والحنان والرافة وكل العواطف والفضائل المنبثقة من القلب البشري الكبير غارت في ايام الجوع الطويلة ، وسار الانسان ، المتوحش من جديد ، على الارض الرعجة ، الكريهة ، وحشاً مفترساً ينهش ، ويفتك ويمزق بضمير جامد ، متصاب !
واذا امتلأ جوفه المجوع نام ملء عينيه كانه ما ارتكب جريمة !

ينظر الناس بعضهم الى بعض كأنهم في حلم مبهم ، غامض ، أوفي دغشة لاتبين فيها الوجوه . او كأنهم تفارقوا من اعوام وعقود ، فتغيرت وجوه وتحولت هيئات

واجسام ! واذا عرفوا بعضهم تراهم جامدين لا يتكلمون ، فتخالهم عادوا مراحل
آلاف السنين الى عهود البكم واللاشعور !

فالعشبة النامية على حفة الطريق ، تبعث فيهم رمقاً شحيحاً ، جزاء من ثانية
حياة ، هي أشغل افكرهم واجذب لقلبهم ، واكمل ما في الانسان من سحر والوهية
من اخ يتالم ، او اب يتأوه او صديق يموت !
يا للانسان الجائع ما أظلمه على نفسه ، وما افتكه بسموه ، وما اقساه على
ضميره وقلبه !

ساعة الهام من الناعري على جبل الزيتون تجري من جيل الى جيل ، ومن
رسول الى رسول ، في شرايين القلب البشري ، فتفتح في رحابه انهار الرحمة ،
والحنان والمحبة ، وتغرق مدنية القساوة والانانية والشهوات ، وايام من
البؤس والشقاء تغيض كل ينابيع قلبه وانهاره ، وتضعه شبه انسان حقير ، ذليل ،
ولكنه قاس ، يسفح كل كثور نفسه الغالية لاشباع جوفه الفارغ !

وساعات وحي من نبي الصحراء العظيم توقف كل ما في الانسان من مثالية وشجاعة
وانطلاق فتدك الاوثان المقدسة كانها دمي اطفال بلها ، وتبعثر القواد والفاتحين
كانهم صبيان يلعبون وتقوض الممالك كانها بيوت من القش واهية ، وتبني دولة
الروح والمادة ، وايام الجوع تمسخ كل الامجاد ، وتبعثر كل الاماني وتعدم كل الآمال !
مرياع ! قد دنت « مرافعك » المستظرة كل عام ، بل هي على ابواب اوانها !
فهاها تمشي باقدام خرساء ، خائفة كانها اللاص في ليلة ساكنة ؟

ولكن من يسمع في مرياع النائمة ، المنازعة ! من مثات سبع من النفوس لم
يبق سوى مثتين ! نصفهم يقاوم الموت باللاعنف والاستسلام ، تنقطع انفاسه زفرة
زفرة كأن الموت يحتدر جلد الانسان الجائع على البقاء ! ونصفهم لا يريد ان يموت !
يريد ان يبقى ولو ثا كلاً ، اياً ، يتيا ، دفيناً في الاحزان والاتراح طوال اعوامه الباقية
ان تبقى الايام حرباً جوعاً ، ظالمة ، يقول المنازعون ، بل سنتهي وتعود
ايام سرور وبهجة ولو مشقة بذكريات النكبات والفواجع !

ان تبقوا انتم ، يا نصف المثتين ، الا تترجوا تحت اعباء نكباتكم ، والا

لتسجلوا ايام المظالم في دياركم ! من يشعر بدنو «المواقع» ؟ ليست القرية فقط كالوراق
اشجار في رياح قابلة لعوب ، بل العائلة تفككت في جسدها وقلبها ، ولم يحدث
التفكك في اعضاء عائلة مشردة تنامى افرادها وقناسوا ، بل في العائلة المتدانية ،
تحت سقف واحد .

افراد العائلة الحبيبة الواحدة ، وقد شدهم عروق دمائهم وجمعتهم عواطف
قلوبهم ، قد اسرو اعداء فيما بينهم ، اعداء على كسر يابسه ، على كمشة من طحين
الشعير الاسود ، على بقية من الدبس المحض !

لم يبق الاب ابا ، ولا الاخت اختاً ، ولا الشقيق شقيقاً ، ولا الابن ابناً ، بل
كل واحد منهم هو مزاحم لقمة تسد الجوع برهة وتطيل العمر زفرات !
قلب بونا الياس الفياض منذ جيل على قرية كاملة بما فيها من بشر وشجر ،
هو ايضاً قد تصدع ، وكاد يروح تحت اثقال محبته ، وحنانه ، فليجأ الى النسك
الدائم ، الى السقيفة في « بستانه » .

احسن ان اوتار قلبه ، وهي قصله بكل قلب في القرية ، تنقطع ، وتسدثر
واحد بعد الآخر كأنها من عنصر قابل التبخر والتلاشي ، فهاله ان يرى ، بام عينه ،
ما حاكته عواطفه في جيل يفنى على الرغم من ارادته يوماً بعد يوم ، فهرب من
المأساة المتمثلة على مسرح قلبه ، وانزوى في كهفه بعيداً عن الناس .
لقد اندثرت كل العواطف ، وصار الانسان ينظر الى المنازع او الى نليت
الهاوي جانب الطريق كمعدو مزاحم قد تخلص من استانه الاكلة .
الضحك وكل علامات البهجة قد اندثرت من محيا الانسان .



اجل لقد هجر بونا الياس بيت ابيه وجده عندما امست قواه خارجة عن نطاق
ارادته ، عندما صارت عواطفه تنطفئ في عجزها وبكمها كما تتلاشى احلام
الاطفال في المجهود الازلي ، عندما امسى قلبه ينعهم المحبة غفمة العاجز الواني .
كان يعيش مع البشر ليعقد عليهم كل ما في كيانه من الحب والتفاني ،

ليوزع عليهم نتائج قلبه الغني الكريم ، فما سكناه معهم الآن الا ليشمئز من نجس لا يريد ، وشح لم يعرفه في نفسه . اذا لازم الناس الآن سيكون ثقلاً عليهم فيمحو من خيالهم ذكره الماضية الجميلة . اذن فليستودع الله اهله وابناء قريته ولينزل عن دنياهم الى الابد ، او الى ان تحدث اعجوبة اخلاص .

وهكذا كان . منذ اسبوع ينقطع القسيس عن الناس في سقيفة البستان . فقد نقل الى هناك بعض امتهته الرثة ، وجعل من ذلك الكوخ الصغير مسكنه الدائم وملجأ ايام قد تكون الاخيرة !

أي نفع لوجود بونا الياس بين قومه بعد ؟ هم لا يطلبون محبة ولا صلاة ولا عطفاً ولا مشقة ساعة موتهم ، بل هم لا يريدون الله ولا يذكرون وجوده ! وما عساه ان يقدم لهم هذا الراهب المسكين ! بيته خاو واهله يموتون ، كرومه عارية حتى من اوراقها ، يده قصيرة لا تطال عوناً من أي مكان !

عندما وصل بونا الياس الى منفاه احس انه انسلخ بكيته عن العالم واتجهت افكاره نحو الله ، هذا الاله الذي لم يبق له من ملجأ غيره . ودبت حرارة الايمان المتأصل في ذلك الهيكل المتهدم فخطب القسيس الهه قائلاً :

— يا اله الضعفاء ، والمساكين ، واليتامى ، والمنكوبين والمظلومين ، اين انت ؟ يا منبع الرحمة والمحبة والحنان هل جفت فواره نعمك ومراحلك عن هذا الشعب البائس ؟

« يا اله السماء والارض هل قفمت على الانسانية لتريد محوها من الوجود ، بالجوع والعري والامراض ! لا لست اله النعمة ، ولا اله الثأر ، فما السر اذن في هذه الحالة المخيفة ؟

« ابقى الضعيف الورع مطية للقوي الجشع ؟ ام هي مشيتك تهمز الضعيف بالظلم ليستجمع قواه ويدفعها الى التحرر ، ويطيل جبل التسهل للظالم على يعوي ويستنير !

« يا الهي ارحم هذا القطيع الصغير ونج ضعفه من انياب الموت الفتاكة ومن براثن الظالمين الناهشين

« لقد خارت قواي وها انا اترك عبيدك المظلومين خاضعين لمشيتك . مستسلمين لعنايتك ! »

في تلك الاثناء ، بعد انقطاع بونا الياس في البهية بأيام مرض بوجريس بالحمل ، واشتد عليه المرض فذهبت مريم تحببها بوطنوس بالامر . وكانت مريم حافية القدمين ، تستر عريها ستراً وتشي بما تبقى في كيانها من كهيا . وعزم الفتوة ! فراع بوطنوس ان يرى الفتاة بحالة كهذه وهو كان ينظر اليها دائماً نظرة الكنة العتيدة وكان لها في قلبه عطف خاص . فادار وجهه ولم يدعها تراه يسح دمة افلقت من عينيه ثم نظر اليها بحنان وقال :

— الحيات معروفة اليوم يا مريم . ابوك معه تيفوس بدون شك . ابقى هنا عندنا تحلصي من العدوى ! بل ستبقى هنا الى ان تنتهي الحرب او غوت كلنا ! ابوك يريد ان يموت بل يريد ان يميتكم كلكم معه قبل ان يبيع توتة واحدة ! ليس لي سلطة عليه ، ولكن الظروف تحواني ان احجزك هنا وان ادبر امر شقيقتك حنة . اما الرجال فلا انا قادر ان اعولهم ولا انا املك سلطاناً عليهم ، الله يدبرهم ! والقسيس ماذا يفعل ؟ »

— عمي القسيس يعيش وحده في السقيفة منذ اسبوع . انا آخذ له أكلاً عندما تطبخ وكل مرة الحج عليه بالعودة الى البيت فيعدني ولا يغني .
— لماذا لا يعود الى ديره هذا القسيس طالما يريد ان يهجركم ؟ يا الله ! ما هذه الواقعة مع هؤلاء الناس ! انهم يريدون ان ينتحروا ، سوف ارى اذا كانوا يأخذون الدنيا معهم ! على كل اياك ان تعودني الى البيت ! امك تحبكم اباك وسوف تأتي حنة معي ايضاً »

وتوالت الايام في السقيفة تكس مصائبها وهمومها على منكبي ذلك الشيخ المتصدع الغاني ! لم يمض عليه شهر في منفاه الصغير ، بل في مملكة عزله والخلاله ، حتى كانت الحمى فتكت ، يساعدها الجوع ، باخيه بوجريس وامراته . وكانت الضربة قوية على جريس ، الى حد انه لم يتحمل البقاء تحت اثقالها اليومية ، فاخذ ما كان باقيا من امتعته وهرب الى السهول . تلك السهول التي لم ترد واحداً بعد من

لقد هدم بيت الحوري الياس القديم ، والارزاق التي كانت تسوسها عشرات الايادي وتسهر عليها عشرات العيون سببت كانها حزون قاحلة . مريم عند عمها بوطنوس ، حنة في المدينة ، والبيت الذي كان يغلي بالنشاط والحياة منذ اجيال امسى خاويا تولول فيه الرياح .

وبونا الياس ينسى البشر وحياتهم يوما بعد يوم ، ولولا محبي . مريم من وقت الى آخر حاملة اليه قليلاً من القوت وكثيراً من فواجع القرية ، لكان عالم الناس امسى اثرأ مندثراً من خياله .

وهذا الصباح طلق بونا الياس كل البشر طلاقاً نهائياً كاملاً . فقد جاءه بوطنوس غاضباً ، موجناً ، مهدداً ، محتقراً ، وقال له بعد موعظة طويلة : « اذا كنت ما تزال كاهناً ، فيك شيء . من التقى وبقية من الطاعة لقوانين رهبنتك ، ومن الاحترام لهذا الاسكيم الرهباني يجب ان تعود الى ديرك ، فهو ملزوم بك ، بل هو احق بك من هذه البرية وهذه القرية . اما الآن فماذا تفعل هنا ، اهلك لم يبق منهم احد ، واهل قريتك ماتوا ويوتون كل يوم وانت تعجز عن مساعدتهم ، وابنة اخيك لاتقدر ان تخدمنا وتخدمك ! لاتظن يا بونا الياس اننا مستقلون بك ! ولكن اليس الاوفق ان تعود الى ديرك ، ثم متى تغيرت هذه الحالة وعاد من يبقى من اهلك في السهول تعود انت اليهم ! » - « هذا صحيح يا ابن عمي ، هذا صحيح . انا ذاهب غداً صباحاً . بلغ الجميع اني ذهبت . وقبل الفجر اكون على طريق الدير . لا لزوم ان اوصيك بهاتين البنيتين ، قد لايبقي غيرها من العائلة . لاترعب نفسك اكثر مما ازعجتها . الوداع ! قد صمت النية الآن . ولن تراني هنا الا بعد الحرب . »

« الله يرضى عليك ! صل من اجلنا في ديرك ، وانا سوف اذهب لزيارتك اذا جررتني رجلاي . الوداع الآن »

وتعانق النسيان ، ثم انصرف بوطنوس مرتاح البال مسروراً . واحس بونا الياس عندما ودع نسيه ان صلاته المباشرة بالانسان قد انقطعت . وان مجاري نفسه الى البشر قد تحوات الى الارض ونباتها اتصل الى الادميين بالمداورة .

وشعر ان الطبيعة فتحت كل اذرعها واحضانها وطوّفت ينابيع عواطفها ؛ فغمزته كما
تغمز الام وحيدها وهو على فراش الموت . واندمج بالطبيعة حاملاً الله في قلبه
ومتوشحاً بالله في كل مظاهرها حتى احس انه اتحد بجوهر الوجود ، وعاد الى
مصدر الحياة .

ثم نزع عن ضميره مسؤولية الناس وحوّلها الى الخالق ، وشعر ان عواطف الدم
واللحم تغادره وتذوب في البشر . ثم تمثلت امام خياله صورة للمستقبل فرأى ايادي
الناس تتناول الاثمار من اشجاره ، فتعزّي وفرح . ثم نظر الى الارض وقال :
« كوني كريمة على ابنائي كما كنت كريماً عليك ، والا تقطع اشجارك وترمى
في النار وتمسين عاقراً . »

ومرت ايام على الناسك وهو يتوارى في النهار بين الحرش القريب حيث يلتقط
البقول ويشرب ماء القلود ، ويلجأ في الليل الى كوخه حيث يحكم سد النوافذ
الصغيرة كي لا يرى وميض لناره .

وانقرضت في كيانه ملكة الجوع ، كأن الله النازل في قلبه ، وهو في هذا
النحول ، قد وحده مع الطبيعة المحدقة به ، فغدا يحيا من غبطة الموت البطي . في هذه
الارضاء الحبيبة !

أيعود الى الدير كما وعد ! ؟ أيغدر بشعوره النبيل هذا الغدر الاخير بعد ان
اخلص له مدى الحياة ؟ أيسلخ نفسه للتلاشية بسعادة في هذا الفضاء الرحب المغمور
باضلال الليل ليكبل ساعاقه الاخيرة بقوانين الانسان الغريبة التي تعبد الله في
الفوضى والغوا . والفوضى !

الدير ! ما عساه يفعل في الدير ! ؟

الدير ! كان صومعة صغيرة في كرم بري بعيد يأوى اليه المتصوفون فحوله
الانسان العادي ، وحرلته القوانين الجامدة ، ومسخته الطقوس المتحجرة وثناً معدد
الرؤوس متضارب المطامع !

الدير ! كان محجة يلجأ اليها الابرار بعد ان يقوموا برسالتهم لبني الانسان ،
فيموتون معانقين الجوهر المتراخي لهم في ساعات انعكافهم على باطنهم ، فحوله

الانسان ، الوثني بغريزته ، الاستبدادي بيموله ، الى سجن يُسام فيه الانسان كل انواع العذاب فيجارب الطبيعة البشرية ، ويتمرد على نواميسها الغريزية الصحيحة .

الدير ! منارة تشع منها كواكب من الشعور الانساني الالهي تحوت الى قصور اقطاعية تحتكر اراضي السذج وتستعبد الفلاح المؤمن !

ومن فؤادة العجبة توزع لكل انسان بدون حساب ، تحوت الصوامع الى مصارف تبدل فيها الصلوات باراض وبيوت ومصاغ وكل انواع العقار !

ومن محطات برية للفلاحين والخطابين والرعاة والصيادين والقائمين ، يوزع فيها الناسك ما تملك يده ، تحوت الناسك الى قلاع تحرسها الكلاب ، ويسهر عليها الحراس المسلحون ، ويسقط على ابوابها الحديدية ايام الحروب ، الاولاد البائسون الجياع في الليالي المعتمة ، وعند الصباح يأمر الرئيس ، الحاكم المطاع ، بدفن الجثث ، فترمي في الحفر كما ترمي الكلاب المنتنة !

الى هناك يريد بوطنوس أن ، يرجع بونا الياس الناسك !

بهت بونا الياس ساعات ، يتأمل في صومعته الصغيرة ، وينتقل بفكره الى الدير حيث يطلب منه ان يذهب فلم يملك نفسه من القول :

« انا بين يديك يا الهي ! »

« إما ان تشد خطاي فأسير ولكن ضعيفاً ، ذليلاً ، عبداً الى سجن عذابي وبلواي ، الى الدير ! واما ان تصلق جسدي بهذه الارض فأموت ، ولكن قوياً كما شئت ان اعيش قوياً . »

« اما ان تجريني كالمحرم الى منفى الرهبان اعيش فيه بعيداً عنك مهرولاً مع تيار آلي لا يفهم ولا يعي ، واما ان تتركني اقضي ساعاتي الاخيرة لا يفصلني عنك فاصل ، بل انام متوشحاً ليلك الهادي . او العاصف ، واستيقظ مستدفئاً بانوارك الغزيرة »

ولكن قد نسي وعده ساعة انصرف بوطنوس ، ساعة ارتفع عن عينيه ظل آخر رجل وتدفت عليه انوار الوجود الصامت ، الناطق بالحرارة والعواطف ، كما يغمر الله ارواح ابراره !

لا ! انه لا يجب العبادة بالمقاييس ، انه لا يريد الصلاة في ساعات معينة

كانه آله تتمثل اقوة مادية ، بل الحياة في ضميره ، من فجرها الى غروبها النازل عليه
الآن ، هي تربية واحدة في شعوره ، والارض بكل مغانيها وزواياها هي معابد
تقود الحياة والصلاة من رغبتها وتحمو في اجوائها ارواح الله الخالده !
الله والانسان والطبيعة : منابع الاحساس للنفس البشرية السامية ، وغايات
النفس الانسانية في كل ميولها وامانيها واهدافها .

والانسان مهادق بشعوره وسمايميله لم يدرك بعد حقيقة الحياة ، ولكن اناساً
عادين بظواهرهم ، بسيطين بادراكهم ، ساذجين بافكارهم ، قد وهبوا نوعاً من
الاحساس المرهف ، ينقلب الى تصوف صميم فيتحسسون جمال الوجود بشعورهم
الصامت ويقفون قوة واصلة بين منابع الحياة واهدافها ويعبون من المصدر زاداً للمعاد
انما التصوف هو في قلب الانسان ، في ميوله وامانيه ورغباته .
متى كانت النفس دفقاً ابدياً الى الامام ومداً دائماً للاعطاء ، ونوافل متتالية
مدى الحياة ، ذلك هو التصوف .

متى اعطت النفس دائماً وهي ترتدي الفقر ، ومتى وهبت وهي تقول ليس
عندي شيء ، ومتى ابتسمت بينما الناس يعبسون ذلك هو التصوف
ليس التصوف في ترديد الكلام بينما النفس فارغة من كل احساس وعاطفة ،
بل التصوف الحقيقي في هذا الانسان البسيط بكل مظاهر الحياة والغني بكل
مكتونات النفس ، هذا الراهب الذي يحمل الله والانسان والطبيعة في طيات نفسه .
لقد ذهل بونا الياس في ايامه الاخيرة عن عالم المادة ، فكأن كيانه تحول الى
كمية اخيرة من الروحية ، تستبقي الجسد خادماً لها لتذوب في روح وجود لا يرى
ولولا وجوده بين ذراعي الطبيعة لكان سها عنها كما نسي الانسان
وانطلق من الانسان الداب على مواطيه الناس سهم من الروحانية وصل
الارض بالسماء ، فأحست تلك البقايا الرثة ، المهتدمة من انسان الامس انها تتحد
بذات لا حدود لرحابه وافاقه .

وانعكف الناسك في حضن امه يفني ايامه الباقية . وبقوة النفس المجهولة والفتي
لا تحدد ، كان يرى عناصر جسده تنحل ، وهو شاخص الى ما حوله من حياة

قلبه مفعم بما يسرب اليه من انواع الغبطة المحمولة عند البشر . وكان كل فراغ يحدث في الجسد يفسح مجالا لدخول انواع جديدة من البهجة والسرور . بل كأن النفس كانت تعيد تلك الايام عيد انتصارها الكامل ، فان الجسد يضحى الى آخر نسمة من نسائه في سبيل سموها ورجوعها الى مقر ألوهيتها

واحس راعي الاشجار ان ساءاته الاخيرة تدنو من . رسي الجسد ، وان البستان ، كما كان مملكة ، سيكون رمسا !

البستان قد اكل نشاط يديه طيلة ستين عاماً ، والبستان سيمتص آخر عنصر من عناصر جسده .

سبقى الجسد زوادة البستان الاخيرة تقدمها النفس في لحظتها الاخيرة . الارماس قد هجرت في هذه الحرب كما هجرت البيوت ، واكثر الموتى كانوا يلحدون في الارض المحدقة بما كنهم .

يجوز ان يشذبونا الياس عن القاعدة الجديدة ؟ وهل اعز على قلبه من ان يغمر جسده بهذا التراب الذي دغدغه الستين الطويلة بانامله ؟

وتطلع الى قنينة الزيت في الطاقة ، فوجدها ملأى بالسيال المخضوض ، المنعش حتى بمنظرة ، ذلك الذي سيضيء جسده الى ان ينطفئ . وسيضيء لعينيه الى ان تغمضا انها ستكفي السراج الى ان تشرق شمس العالم المنيء ، الذي لا يعرف غروباً ولا ظلمات ! ونظر الى الشحيمة وقال في قلبه همساً :

« كنت خطائي الى الله عندما كان الناس يلبسون بالي وفكري ؛ اما الان فان الله امامي وفي قلبي ، وفي كل مكان ، يناجيني وانا جيه فلا لزوم ان اتكلم بلسان الناس ، بل لا لزوم ان اتكلم ابداً ، عندما يحس القلب وتشعر النفس ، على اللسان ان يخرس . »

ثم انتعشت هنية قواه الجسدية المطهرة فوقف على رجلين ترتجفان ومشى في البستان ينتقل من شجرة الى شجرة معتمداً على الشعاب ومتهدياً بها . وكأن الجوع أحيا ذاكرته ووضح كل الصور المنطبعة على الواحها ، فكان كلما وقف عند شجرة يستعرض نشوءها من حين غرسها يدها الى ان ذاق اول اثمارها ، وزار كل

مزل من منازل مملكته كان يودعه ويدعوه بالعمران الطويل ثم خاطب الاشجار قائلاً :

« لتكن اغصانك اكفاً ممدودة الى الابد تعطي كل سائل وتعذي كل جائع وتظلل كل تعب ، وتروي كل عطشان »

ولما انهي زيارته عاد الى السقيفة ، فاحذ الشجيرة وقتش عن ورقة بيضاء بين اوراقها فلم يجد . وتفقد قطعة من قلم رصاص في حبيبه من اشهر فوجدها . اذ ذاك فتح الشجيرة وكتب على اول صفحة منها وهي بياض .

« اذا لم يبق احد من اهلي ولم توجد وصية ثانية تنقض وصيتي هذه ، فاني اوصي بارزاق الخوري الياس كاهن الكنيسة القرية ولقراؤها وانكن هذه الارزاق واغلاها مريحة لمن تعب واورث . »
القس الياس

وسمع الراهب همساً في داخله يقول : « اهكذا يكون جزاء من يكسر حياته لكم . ايحكم عليه في آخر ساعة بالعودة الى الدير ! » ولكن صوتاً داخلياً اقوى من الهمس اجاب :

« سبقى هنا الى آخر نسمة جميلة من حياتك ، انك ستمسخ حياتك مسخاً ان انت تجز رجليك وتسير نحو ديرك فتموت اما واهياً على الطريق ، واما اماً من سخوية الرهبان واستبدادهم . »

واحس ان الجسد يتهيب هذه القوى الجديدة ويخضع لنواميس غريبه ، مجهوله الجسد بقواه الجديدة صار آلة لا تخضع لنواميس العالم القديم ، ولا تدعن للملكاته المهيمنة من جوع وعطش وغيرها ، بل غدا شجرة قضي . الى ان تفنى كل عناصرها ! وقد شعر بونا الياس بحالته الجديدة المنتعشة فظن انها عارضة ، وانكبتها على كل حال قوته ليقول كلمته في موقفه القاسي وقد صرح في داخله لداخله : « ان اذهب الى الدير »

ومنذ تلك البهة صار يحيا بونا الياس في مملكته حياة جديدة ، بل صار يقنى نوعاً جديداً من الفناء !

لم يعد يحب الاشجار كما كان يحبها من قبل ، فولادته الجديدة في شيخوخته

العجيبة ، المدهشة ، اعطته عواطف غريبة ، لم تكن من قبل الا وميضاً تخيلاً بين عواطفه . لم يعد ينتظر اثراً ولا اظلالاً ولا قبولة صيف ناعمة من كل ما صنعت يدها بل هو ينظر اليها ويلامسها كما ينظر الشيخ الصالح الى ابنائه وهو على فراش موت قدير ، فيغمض عينيه بينما اصابعه تلامس يد واحد منهم ملازمة الوداع الهنيء ، لا تمسكاً بالحياة !

وتركز عالم الانسان والنبات والجماد في مملكة بستانه ، وتتركز عالم الله في عمق نفسه ومن يره كما اراه يحده همزة وصل بين الارض والسما .

XVIII

على باب السقيفة ، في صبح نهار من ايام نوار المعطرة ، وجد هيكل الناسك تغمره اشعة من الشمس واطلال مسن اشجاره المورقة . لا تقترب منه الحشرات ، لان كل عناصر الجيد تلاشت ولم يبق للتراب والحشرات الا شبح من جلد يابس وعظام نخيلة

انطفأ وهو جالس على الارض ، يتسكى . على عتبة مأواه ، تطفو على وجهه ابتسامة حية في جسد ميت ، ابتسامة فيها القناعة ، والصبر والعزاء وراحة الضمير ! وبعد مرور ثلاثة ايام على موته رأت الطير ، وهي مشغولة بجوك او كارها ، شبح رجل وامرأة يحفران في الارض : هما بو طموس وامراته ، كانا يواريان جثة الناسك قرب السقيفة ، في البستان الحزين على ابيه وامه .

بعد عامين من هذه الاحداث الموجهة ، بعد انتهاء الحرب الكهري بسنة ، عاد جويس الى قريته . هو الوحيد الذين رجع سالماً من كل اهل الذين هجروا القرية ، فوجد مريم وحنة سالميتين ومتزوجتين ، وارزاق الخوري الياس مهجورة من سنين . القرية لم يبق فيها الا مئة نفس من الاحياء ، والباقون هاموا في انحاء البلاد او قبروا حول بيوتهم او في بيوتهم .

ولكن شخصاً واحداً كان باقياً على ما كان تماماً وذلك الشخص هو ابنة عمه

سليمة .

وبعد مرور اشهر ، في صباح يوم من ايام نوار البهيجة ، كان جريس مع زوجته
 سليمة يقومان بدورة على الاملاك ، وهي ما تزال في اثوابها القديمة ، تغطيها ازهار
 الربيع كما تغطي الابتسامة وجه قلب حزين .
 ولما وصلا الى البستان ، الى قرب السقيفة ، تبينا آثار رفس ازهر عليه
 الاقحوان وتدلّت فوقه اغصان الزيتون الكبيرة ، فسجدا وتم جريس مترجماً وقال
 لرفيقة حياته :

« طوبى لمن عاش للناس ومات لاجل حياتنا الجديدة »



وضعت في الميه وميه سنة ١٩٤٣







Princeton University Library



32101 074474923